ومضت أيام اللؤلؤ

إحسان عبد القدوس

١

إنه يذكر أول مرة التقت بها عيناه.. كان يتناول طعام الغداء فى كافيتريا فندق شيراتون كما تعود بين كل حين وآخر.. كان يفر من عائلته ويتناول غداءه وحده بعيدا عن أفرادها فى أى مكان بعيدا عن البيت.. كأنه كان يتعمد الهروب من إحساسه العائلى.. ويستريح.. ويتفرغ لخياله.. إن خياله يضيع وهو بين أفراد العائلة.. ويحس وهو معهم بأن عقله لا يستطيع أن يبتعد عن الدنيا.. ودنياه هى عائلته.. ولكنه دائما فى حاجة إلى خياله.. إن عمله يقوم على احتراف الخيال.. لذلك كان يتعمد الهرب من العائلة.. وقد يهرب إلى خارج مصر كلها ويقضى شهورا وحده.. متفرغا لخياله.

وكان جالسا على مائدة قريبة من مائدة أخرى تضم مجموعة من النساء.. ولم يتعمد أن يلتفت إلى هذه المائدة الأخرى فليس من طبيعته أن يتلفت حوله.. ثم إنه ليس بصباصا يبحث بعينيه عن الجمال.. جمال المرأة.. أو يبحث عن المرأة قبل أن يبحث عن الجمال.. ولكنه صدفة رفع عينيه ناحيتها فالتقى بعينيها تبحلقان فيه.. وما كادت تلتقى بعينيه حتى أرخت عينيها بسرعة فى خفر شديد رفع الدماء إلى وجنتيها.. كأنها ضبطت فى فضيحة التطلع إلى رجل.. ولم يهتم.. وتفرغ هائما فى طبق المكرونة الاسباجتى الذى

يستولى على كل شهيته عندما يجده أمامه.. رغم أنه يعتمد أحيانا أن يهجره.. يهجر المكرونة الاسباجتى لأنها تنفخ بطنه وتبرز كرشه وتزيد وزنه.. يهجرها كأنه يهجر حبيبته لأنها تكلفه أكثر مما يحتمل.. ولكنه عاد بعد فترة يرفع عينيه إلى المرأة الجالسة على المائدة القريبة. وفوجىء بعينيها مرة ثانية تبحلقان فيه.. وأيضا أرخت عينيها فى خفر بمجرد أن التفت إليها.. لكنه لم يبعد عنها عينيه.. ربما لأنه كان قد انتهى من التهام طبق الاسباجتى.. وظل متطلعا إليها.. فى أدب طبعا.

إن وجهها رائع السمات.. وأجمل ما فيه عيناها الواسعتان السوداوان.. لعلها تعلم أن أجمل ما فيها عيناها فإنها يبدو أنها تتعمد تطريزها بالألوان تطريزا يبرزهما ويشد العيون إليهما.. ولكنها أيضا تثقل من وضع الروج على شفتيها العريضتين.. لعل من طبيعتها أن تبالغ فى تطريز وجهها.. وأنفها لا ينطبق عليه مواصفات الجمال.. أنه أطول من اللازم.. ولكنه أنف رفيع مستقيم لا يشوه جمالها رغم أنه يتدلى إلى قرب شفتيها.. وشعرها أسود غامق.. طويل.. ولكنها لا تتركه ينهار فوق كتفيها ولكنها تلفه فى عقصة حلوة كأنها جعلت منه تحفة غالية تحملها فوق رأسها.. لا يمكن أن تكون هى التى عقصته.. لاشك أنها تعودت ألا تظهر أمام الناس إلا بعد أن تمر على الكوافير.. ولكن.. هل هى مصرية.. قد لا تكون مصرية.. فإن بنات مصر يجمعن بين ألوان وأنواع الجمال حتى يمكن أن تخلط بينهن وبين كل بنات البلاد العربية.. إن أى بنت من بنات مصر يمكن أن تكون عراقية أو مراكشية أو كويتية أو سعودية.. أو.. أو.. كلهن يمثلن طرازا له نظيره فى مصر.. حتى بنات لبنان أو سوريا المشهورات المعروفات بين البلاد العربية ببياض البشرة، والشعر الأشقر يضعن بين بنات مصر

لأن طرازهن وتفاصيل مظهرهن له ما يشابهه بين البنات المصريات.. فى مصر أيضا بنات شقراوات بيضاوات.

وقد التقطت أذناه بعض الكلمات التى تدور بين الجالسات على المائدة القريبة.. إن لهجة الكلام ليست قطعا لهجة مصرية.. إن ما يفرق بين بنات مصر وبنات دنيا العرب هو فقط لهجة الكلام.. أو ما يسمونه موسيقى ولحن الكلام.. ولكنه لا يستطيع التفريق بين اللهجات العربية بل إنه لا يفهم ما يقال بأى لهجة منها.. حتى أنه سافر مرة إلى المغرب وصادق هناك شابا أصبح مرافقا له فى زيارته، وكان كلما حادثه هذا الشاب باللهجة المغربية لا يفهم شيئا مما يقوله.. إلى أن اتفقا على أن يتبادلا الحديث باللغة الفرنسية.. وهى لاتزال اللغة الوطنية فى المغرب.. رغم أنه لا يجيد هذه اللغة ولكنه كان يستطيع أن يفهم منها أكثر مما يفهمه من اللهجة المغربية العامية.. وكذلك باقى اللهجات.. اللهجة العراقية أو السعودية أو الجزائرية.. أو.. أو.. أنه لا يستطيع أن يفهم سوى اللهجة المصرية، ومما يساعده على التفاهم مع أصدقائه اللبنانيين أنهم يجيدون التحدث باللهجة المصرية ولكن إذا خطر لواحد منهم أن يحادثه باللهجة اللبنانية القح فلن يفهم منه شيئا.. وخصوصا إذا كان المتحدث من أهالى شمال لبنان أو من أهالى الجبل.

وتأكد أن النساء الجالسات بالقرب منه لسن مصريات.. ولكنه لا يستطيع أن يعرف لهن موطنا.. لا من ناحية الشبه ـ فمصر تضم جميع فوارق الشبه ـ ولا من ناحية لهجة الكلام فهو لا يستطيع أن يميز موطن أى لهجة ولا تستجيب أذناه إلا إلى اللهجة المصرية.

لا يهم..

لا يهم حتى بعد أن ضبط عينيها تبحلقان فى عينيه فقد تعود على مثل هذه البحلقة من الكثيرات.. فهو كاتب معروف.. يكتب القصص.. وكثيرات من قارئاته يبحلقن فيه كلما التقت به أحداهن صدفة.. وهو لأنه لا ينسى نفسه ككاتب معروف تعود أن يفرض على نفسه الصمت فى مواجهة هذه البحلقة.. ولا يبدأ بالإقبال على أحداهن وتقديم نفسه لها إلا إذا بدأت هى أولا.. رغم أنه فى مرات كثيرة كان يعانى هذا الصمت من شدة ما تبهره هذه الفتاة التى تبحلق فيه.. وقد يتعمد أحيانا أن يبقى أمامها طويلا على أمل أن تقبل عليه ليتعرف إليها.. وأما أن تقبل وإما أن تكتفى بالبحلقة ولا تقبل.. فيبتعد متحسرا لا لأنها حركت فيه هدفا خبيثا بل لمجرد أنه يحب التعرف بالجمال والاقتراب منه واكتشاف حياته.. حياة الجمال.. فالجمال يشكل ألوانا خاصة من ألوان الحياة.. يشكل قصصا لها طابع خاص تلهمه موضوعات تصلح للنشر.

وقام من على مائدته ويده تمسح فوق بطنه كأنه يربت على المكرونة الاسباجتى التي تمتع بها.. ولم يكن يحس بحسرة لأنه فقد هذه الفتاة التى كانت تبحلق فيه.. فهو لم ينبهر بها وإن كان قد سعد بالتقاء عينيه بعينيها سعادة أرضت غروره ككاتب له مثل هذه القارئة.. ولكنه وجد نفسه وهو على عتبة باب الخروج يعود ويلتفت إليها وفوجىء بها تتبعه بعينيها.. وخجل كأنه فضح نفسه لمجرد أنه التفت إليها وسحب عينيه بسر[illegible]خرج من الباب مسرعا كأنه يهرب من ضعفه.. أو من غرور[illegible]

و[illegible] هذه الفتاة وكل ما يخصها بعد لحظات من ابتعاده عنها.. [illegible] مجرد مشهد من مشاهد الطريق التى تعود أن يلتقى بها.. ولكن بعد يومين دق جرس التليفون فى بيته.. بيت

العائلة.. إنها امرأة تريد أن تحادثه.. والعائلة تعودت أن يحادثها الكثيرات فى التليفون.. فهذا بعض ما يفرضه عليه عمله.. ويجب أن يكون دائما على اتصال بقرائه وقارئاته.. وإن كانت نسبة القارئات المتحدثات ترتفع كثيرا عن نسبة المتحدثين القراء.. لذلك التقط سماعة التليفون دون أن يحس بالحرج أو المفاجأة.

وسمع لهجة عربية غريبة وإن كانت صاحبتها تحاول أن تمصرها حتى كانت تدمج فيهاكلمات من اللغة الفصحى.. وقالت فورا دون أن تذكر اسمها:

– هل أستطيع أن أقابلك؟

وقال فى بساطة:

– من حضرتك ؟

قالت بلهجتها السريعة وكأنها متعجلة:

– إنك لا تعرفنى.. إنى قارئة.. وقرأت لك الكثير.. وأحس أنى فى حاجة إليك.. عندى مشكلة.

وقال فى لهجة عادية فقد تعود لقاء أصحاب المشاكل:

– سأنتظرك فى مكتبى غدا.. الساعة الثانية عشرة.

قالت وهى تضغط على كلماتها حتى تحصر لهجتها فى رنة مفهومة:

– لا .. لا أستطيع أن أظهر فى مكان عام.. آسفة..

قال فى برود:

– إن مكتبى فى بيتى.. بيت العائلة..

وهو يردد كلمة بيت العائلة حتى تطمئن المتحدثة إليه إلى أنه لن ينفرد بها فى بيت خاص مما قد يثير حوله الشكوك والشبهات.

وسمعها تتكلم مع امرأة بجانبها.. كلمات سريعة وبهذه

اللهجة الغريبة التى لا يفهمها.. ثم عادت تقول له وهى تعدل من لهجتها:

- حاضر.. غدا الساعة الثانية عشرة.. شكراً.. كل الشكر.. ومع السلامة.

وألقت سماعة التليفون دون أن تنتظر ردا منه.

ولم يهتم.. مادامت صاحبة مشكلة فلا يمكن أن تكون امرأة طبيعية تراعى كل التصرفات الطبيعية.

وقد تعود أن يلتقى بمن يلجأ إليه من أصحاب المشاكل فى مكتبه داخل بيته.. ومنذ سنوات طويلة وقد نقل مكتبه إلى داخل بيته.. لم يعد له مكتب خارج البيت.. وأهل البيت تعودوا على التقاليد التى وضعها لهذا المكتب.. فهو إذا دخله وأغلق الباب وراءه فإن كل أهل البيت يجب أن يعتبروه وكأنه خرج من البيت كله.. فلا يلاحقه أحد داخل المكتب.. بل ليس من حق أحد أن يدخل عليه.. وقد وضع تليفونا خاصا بغرفة المكتب غير تليفون البيت فإذا احتاج أحد من أهل البيت إليه فكل ما يستطيعه هو أن يتصل به بالتليفون من الغرفة المجاورة.. بل إنه جعل للسفرجى الذى يعمل فى خدمة العائلة زيا خاصا يرتديه بمجرد أن يراه يدخل مكتبه.. ولا يدخل إلا إذا دق له الجرس حتى يكون دخوله مكتملا لمظهر مكاتب العمل الرسمية.. وهو يدق الجرس ويستدعيه عشرات المرات لأنه لا يستطيع أن يكف عن تناول أقداح القهوة مادام فى مكتبه.. وقد تعودت العائلة أن تستقبل الزوار سواء كانوا نساء أو رجالا دون أن يثور بين أفرادها الفضول.. إنهم لا يسألون من هو أو من هى؟ ولا تهم شخصية الزائر سواء كان شخصية معروفة أو امرأة مثيرة.. إنهم ليسوا فى زيارة البيت ولا العائلة ولكنهم فى زيارة المكتب وزيارته هو شخصيا..

يقودون الزائر مادام قد جاء على موعد مباشرة إلى غرفة المكتب ويغلقون خلفه الباب.. وهو قد تعود أن يبلغ السفرجى بكل ما يرتبط به من مواعيد.. أما إذا جاء الزائر بلا موعد فإن السفرجى يستقبله ويقوده إلى غرفة الضيافة التابعة للبيت إلى أن يستأذنه فى دخوله غرفة المكتب..

وهو من طبيعته الاهتمام بأصحاب المشاكل.. بل إنه يشعر بأنه مسئول عنهم.. إن قصصه التى يكتبها تضم آراءه وتحليلاته للمشاكل الاجتماعية والمشاكل التى يتعرض لها الأفراد.. ولاشك إنها تترك تأثيرا على نفسية القارئات والقراء يدفع الكثير منهم إلى الالتجاء إليه لحل مشاكلهم.. وهم لا يطلبون الحل ولكنهم محتاجون أكثر إلى العلاج.. علاجهم من أزماتهم النفسية.. وهو قد قرأ كثيرا فى علم النفس.. ولم يقرأ كدراسة ولكنه يقرأ لأنه من هواة الاطلاع على خبايا النفس.. وهو لا يعتبر نفسه طبيبا متخصصا فى علاج قرائه.. ولكنه اكتشف أن المريض النفسى ليس فى حاجة دائما إلى طبيب.. ولكنه قد يكون فى حاجة إلى مجرد إنسان غريب يشده إليه بمجرد ثقته فيه.. ولاشك أن كل من يحتاجون إليه من أصحاب المشاكل يدفعهم إليه ثقتهم فيه بتأثير ما قرأوه له.. وهو طبعا لا يحدد دواء لأى حالة نفسية تعرض نفسها عليه ولكنه مؤمن بأن من أقوى وأجدى سبل العلاج النفسى هى القدرة على دفع المريض إلى أن يتكلم.. ويتكلم فى راحة.. والقدرة على الاستماع إليه مهما أطال فى كلامه ومهما كان ما يقوله له.. وكان إحساسه بمسئوليته عن قرائه يعينه دائما على اكتساب ثقتهم بعد أن يجلسوا إليه.. ويهديه إلى إيجاد السبيل الذى يطمئن المريض إلى الدخول مباشرة فى الموضوع الذى يشكون منه.. ثم إطلاقه فى عالم الصراحة..

منتهى الصراحة.. وقد سمع من الكثيرين كلاما لا يمكن أن يكونوا قد قالوه لأحد آخر.. كلام لا يمكن أن يقوله ابن لأبيه أو لأخيه.. أو تقوله فتاة لأى مخلوق فى الدنيا.. كلام هو شخصيا تكاد تهزه الدهشة وهو يسمعه لولا أنه كان يكتم دهشته لكى لا يؤثر فى المريض وحتى يطمئنه إلى أن كل ما يقوله هو مما تفرضه الحياة.. ومهما كان فى الحياة من أسرار فكلها أسرار من طبيعة الحياة.

وهو واثق أنه أنقذ الكثيرين من سيطرة الحالة النفسية التى يعانونها بمجرد قدرته على الاستماع إليهم.. إنه ينقذ كل مريض بإتاحة أبعد درجات الصراحة له حتى ينفض عن أعصابه كل ما تحمله من أسرار.. فيستريح.. كأنه ألقى همومه بعيدا عن نفسه وأصبح سليما معافى رائق الأعصاب.. ولاشك أنه استفاد أيضا كثيرا من صراحة مرضاه.. إن كلا منهم كان كأنه يوحى إليه بقصة جديدة قد يكتبها وينشرها.

ولذلك كله لم يفاجأ بصاحبة المشكلة التى تريد لقاءه.. إنها جانب من روتين عمله..

وفى اليوم التالى كان قد أبلغ السفرجى عن الموعد.. ودخل بها إليه فى غرفة المكتب وفوجىء بمجرد أن التقت بها عيناه.. أنها نفس الفتاة التى كانت تجلس قريبة منه يوم طبق الاسباجتى الذى تناوله فى كافتريا شيراتون.. ولكنها ليست وحدها.. إن معها فتاة أخرى استنتج وهى تحييه بكلماتها أنها مصرية.. ولكنه لاحظ أن هذه الفتاة الأخرى تسير خلفها وفى تكلف واحترام كبير.. لعلها سكرتيرتها.. لايدرى.

واستقبلهما فى بساطة كعادته تمهيدا لرفع الكلفة بينه وبين من يزوره من أصحاب المشاكل.. وجلستا.. وبدأت الفتاة المصرية تتحدث.. حديثا عاما تؤكد به فرحتها وتشرفها بأن

صادفت الفرصة التى رأته فيها.. أما هى فلم تتكلم.. حتى بعد أن قال لها.. أهلاً. هزت رأسها ترد تحيته دون أن تتكلم.. ثم فوجىء بعد دقائق بالفتاة المصرية تقوم واقفة وتقترب من الفتاة الأخرى قائلة:

- سأذهب أنا.. متى تريديننى أن أعود؟

ودهش.. ولكنه لم يعلق بشىء.. لاشك أن المريضة تريد أن تخلو بطبيبها لذلك اتفقت مع صديقتها على أن تتركها معه وحدها.. وقام واقفا وقال مجاملا:

- كنت أتمنى أن تبقى معنا..

ثم ضغط على الجرس يستدعى السفرجى ليصحبها إلى باب الخروج من البيت.. وقامت الفتاة الأخرى بسرعة وشدت صاحبتها وتهامست معها.. وانتهى الهمس بسرعة وخرجت صديقتها مع السفرجى وهى تقول بصوت ظاهر حتى يسمعه:

- سأعود بعد نصف ساعة..

وأصبح وحده مع الفتاة وهو يفكر كيف يبدأ الحديث حتى يعينها على أن تبدأ فى سرد مشكلتها.. ولكنه كان فى الوقت نفسه يستعرضها بعينيه.. إن الجمال الأسمر أوضح مما رآه فى شيراتون. والشعر الأسود معقوص فى تاج رائع فوق رأسها وإن كانت عقصته أكبر مما يستلزم الظهور فى الصباح.. إنها عقصة مغالى فيها لاتصلح إلا لسهرات المساء.. وهى أكثر اكتنازا مما تصورها عندما رآها أول مرة.. تميل إلى السمنة.. وهى أيضا أقصر قامة مما نسجه لها خياله.. ولكن ذلك لا يضيع من انسجام قامتها ولا يحرمها من الرشاقة.. ثم إنها ترتدى ثوبا باهرا.. لاشك أنه آخر مستحدثات الموضة.. إنه بنطلون يضيق قبل الكعبين ومن فوقه ثوب يصل إلى الركبتين.. ولونه أحمر لامع.. وهو يبرق ويهف كأنه من

الحرير.. ولكن لا يمكن أن يصلح مثل هذا الثوب للصباح.. لابد انه ثوب لسهرات المساء.. حتى حذاؤها إنه حذاء رائع يحمل اكثر من لون.. ولكنه أيضا لا يمكن أن يخصص لزيارة صباحية عادية.. زيارة عمل.. إن كل ذلك يمكن أن يعبر عن نواحى شخصيتها.. وقال لها كأنه يؤكد أنه يعرف أنها ليست مصرية:

- هل أنت فى مصر منذ زمن؟

قالت وهى لا ترفع عينيها إليه وبين شفتيها ابتسامة لا تزال خجولة:

- منذ ثلاثة أيام..

قال وهو لا ينسى أن يضع على شفتيه ابتسامة يحاول أن تجذب اطمئنانها:

- وحدك.. أو مع صديقاتك اللاتى رأيتهن معك؟!

وقالت وابتسامتها تتسع وتقطر الحسرة الساخرة:

- لا .. لا يمكن أن أكون وحدى.. إنى فى صحبة العائلة كلها..

قال فى لهجة صاحب الحق فى السؤال.. حق الطبيب:

- هل أنت زوجة؟

قالت وهى تتنهد:

- نعم .. زوجة..

قال فى دهشة.. لم يكن يتصور أنها متزوجة.. ربما لأنه لم يرها مع رجل:

- وأنجبت..

ورفعت إليه عينيها الواسعتين السوداويين وقالت وفى صوتها رنة الزهو:

- ثلاثة .. ولدين وبنتا.

وعاودته الدهشة.. لقد كان يتصورها أصغر من أن تنجب كل هذا العدد.. ولكنه كتم دهشته وقال لمجرد أن يجرها إلى الحديث:

- وهل معك .. الزوج والأولاد؟

قالت وهى تفرك فى يديها دون أن تنظر إليه:

- معي..

قال فى مرح كأنه يشدها إلى رفع الكلفة:

- لم أكن أتصور عندما رأيتك أنك يمكن أن تكونى زوجة وأما لثلاثة.. إنك أصغر بكثير من أن تصلى إلى كل ذلك.

ونظرت إليه مبتسمة وقالت:

- كم تقدر عمرى:

وتردد قبل أن يحدد لها عمرها.. إنه يعلم أن النساء الصغيرات يفضلن أن يقنعن غريب الصدفة بأنهن أكبر سنا مما هن.. كأنهن يحاولن اكتساب احترامه أو اطمئنانه إليهن أو عدم معاملتهن كبنات صغيرات.. لذلك قال مرضاة لها وحتى لا يشعرها بأنه ينظر إليها كمراهقة مجنونة:

- لعلك فى الثلاثين.

وضحكت قائلة:

- نعم .. فى الثلاثين..

وهو متأكد أنها أصغر من الثلاثين.. لعلها ستعترف له بحقيقة عمرها بعد أن يكتسب ثقتها.. بعد أن يفلح فى إقناعها بأنه طبيب.. وعاد يسألها:

- هل ستبقون معنا طويلا؟

وقالت وهى تتنهد كأنها تتحسر:

- لا .. حتى نهاية الأسبوع..

وقال يحاول أن يسعدها بالتمسك بها:

- لماذا .. مادامت العائلة كلها فى مصر فلماذا لا تبقون فى مصر؟

وقالت وهى لاتزال تفرك يديها وعيناها منكستان بعيدا عنه:

- إننا تعودنا أن نسافر إلى لندن.. لنا بيت هناك.. ولكن يجب أن نمر بمصر ونحن فى طريقنا إلى لندن.

وقال كأنه يلومها:

- أتفضلين لندن على القاهرة؟

وقالت بسرعة كأنها تنفى إشاعة:

- بالعكس .. إنى أتمتع بكل دقيقة أقضيها فى مصر.. ولكنى لست وحدى أبدا.. والبيت الذى اشتريناه فى لندن، وإن كنت أحس فى لندن بمزيد من الحرية عما أكون فى القاهرة.. إنك لا تعلم أنه كان من المستحيل أن آتى لزيارتك لولا أننى استعنت بصديقتى المصرية وادعيت أنها ستصحبنى إلى بعض محلات الشراء واتفقت معها على أن تأخذنى إليك.

وقال والحيرة تنطلق مع كلماته:

- وماذا يقيد حريتك فى مصر.. هل أنت معروفة هنا؟

وقالت كأنها تحادث نفسها:

- لا .. لى صديقات ولكنى لا أظن أنى معروفة.. ولكنى أحس بأن حريتى مقيدة فى مصر.. مجرد إحساس يصل أحيانا إلى حد الخوف.. فى حين أن هذا الإحساس لا يراودنى فى لندن.. كلنا كذلك.. كل أهل البلد.. كأننا هنا فى بلدنا.. ولا نكون فى بلد غريب لا نخاف فيه أحدا إلا عندما نصل إلى لندن.

وقال فى لهجة الأستاذ:

انصحك بأن تعيدى تقديرك لمجال الحرية.. إن لندن أصبحت مزدحمة بالعرب حتى أصبحت كأنها بلد عربى.. بل

إن الاعلانات وإشارات الحوانيت تكتب هناك بالعربية.. ووجود العرب يقيدون حريتك بالنسبة لتقاليدك.. أما القاهرة فقد أصبح إقبال العرب عليها أقل من إقبالهم على لندن.

وقالت مصممة:

- لا .. إنى لا أحب الحرية إلا فى لندن.. لو كنت أنت فى لندن لكان لقاؤك أسهل علىّ ولما اضطررت إلى هذه الخدعة حتى ألقاك.. إن العرب فى لندن كأنهم متفقون على أن يمنح كل منهم الحرية للآخر.. حتى الرجال والنساء كل منهم يترك الآخر حرا.

قال كأنه يرجوها:

- مادام لك فى مصر صديقات فيمكن الاعتماد عليهن لتوفير الحرية.

وقالت بلا اهتمام:

- إنها ليست صديقة دائمة ولكنى أثق فيها لأن والدى أنقذها مرة فى لندن.. فقد أفلست هناك وأهداها بابا تذكرة العودة.. وهى ترد الجميل فى كل ماأريد ولكن ليس إلى حد أن أشركها فى كل شىء..

وفى هذه اللحظة سقطت عيناه على ما لم يكن قد ركز عليه ناظريه من قبل.. إنها تتحلى بكثير من المجوهرات.. وكلها من الماس.. فى أصابعها ثلاثة خواتم من الماس الصافى، وفى رسغيها أربع أساور كلها مغطاة بالماس الناصع، وفى عنقها يتدلى مشبك عريض يبرق فيه الماس. كل ما تتحلى به الماس.. ليس بينه أى نوع آخر من قطع الحلى.. لا ياقوت.. ولا فيروز..كله ماس.

وأحس بحرج وهو يجلس أمام هذه الخزانة من الماس.. حرج ضايقه.. بل حرج أصابه بالسخط.. ربمالأنه لم يتعود

على الاقتراب من الماس.. ولكنه ضغط حرجه وسخطه، وسيطر على أعصابه حتى يظل متفرغا لمسئولية الأستاذ والطبيب، وقال ولهجته أكثر جدية مما بدأ:

- إننى أحاول أن أشدك إلى الحديث عن مشكلتك.. فحدثيني..كيف تزوجت.. هل تزوجت عن حب؟

وقالت ساخرة:

- ليس هذا الحب الذى تكتب عنه فى قصصك.. ولكنى سعيدة مع زوجي.

وقال متعمدا أن يحصر الحديث للوصول إلى مشكلتها:

ـ ألم تعرفى الحب أبدا قبل الزواج؟ لعلك كنت أصغر من الحب .

قالت وهى ساهمة كأنها بدأت تتعلق بذكرياتها:

- لم أكن أصغر من الحب.. ولكنى لا أعتقد أن الحب الذى صادفنى ورغم كل ماعانيته هو الذى تقوم عليه مشكلتى.

وقال وهو يحاول أن يكون حنونا بعد أن بدأت تعيش مشكلتها:

- ماذا تقوم عليها المشكلة؟

وقالت كأنها تهم بالبكاء:

- بابا..

ثم تنبهت بسرعة وقالت بصوت مرتعش كأنها تنقذ نفسها من غلطة شنيعة وقعت فيها:

- أقصد أباها.. فالمشكلة كلها ليست مشكلتى ولكنها مشكلة إحدى صديقاتى.. إنها عزيزة علىّ.. ومن كثرة ما قرأت لك وعشت فيما قرأته تمنيت أن أروى مشكلتها لك لعلك تجد لها حلا. إن صديقتى ليست معى.. ليست فى مصر.

وابتسم فى إشفاق..

إن معظم صاحبات المشاكل اللاتى يترددن عليه يبدأن بادعاء أن المشكلة هى مشكلة إحدى صديقاتهن.. كأنهن يتسترن من فضيحة.. وقد يبقين متسترات طوال لقائه بهن ولكنهن فى الغالب وبعد أن يسترحن له يعترفن بالواقع.. إنها مشكلة من تتحدث إليه.. لذلك لم يأبه بادعائها إنهامشكلة إحدى صديقاتها وقال كأنه لم يسمع ادعاءها:

- على كل حال إن مشكلة البنت مع الأب تكون أحيانا مشكلة حب أيضا..

ونظرت إليه بعينين حائرتين كأنها لم تفهم.. وقبل أن تتكلم انطلقت دقات على باب الحجرة المغلق ثم دخل السفرجى يصحب صديقتها.. لقد عادت.. وقالت فى أدب:

- آسفة .. لقد تأخرت قليلا..

هل مضى أكثر من نصف ساعة.. إنه هو شخصيا لم يحس بمرور الوقت.. وهمت السيدة العربية أن تقوم لتنصرف مع صديقتها وقال وكأنه يستجديها:

- إن حديثنا لم يبدأ بعد.

قالت آسفة:

- لا أستطيع أن أتأخر أكثر.. ولكنى سألقاك مرة ثانية.. لو سمحت..

قال وهو يائس مع خيبة أمله:

- متي؟

وفكرت قليلا ثم قالت كأنها صممت على ماخطر لها:

- غدا.. فى نفس الوقت.. لو سمحت.. ولكن أرجوك أن تسمح لى بأن أتحدث إليك فى التليفون حتى أؤكد لك الموعد..

قال فى هدوء:

- سأكون فى انتظارك.. ولكنى لم أعرف اسمك..

وسهمت بعينيها ثم تلجلجت كلماتها كأن لسانها يرتعش وقالت:
- اسمى .. اسمى.. هل تريد أن تعرف اسمى؟
وقال وهو لا يزال هادئا:
- كما تريدين.. إنى فقط أريد أن أكسب ثقتك.. أريد أن نكون أصدقاء يعرف كل منا اسم الآخر.
وعادت ساهمة برهة تفكر ثم قالت:
- اسمى نوف..
وابتسم ابتسامة ضيقة.. إنه يعرف أنها تكذب.. أن كثيرات من أصحاب المشاكل يدعين أسماء ليست لهن.. كأنهن يختبئن ويتسترن على أنفسهن.. ولكنه رغم ذلك عاد يقول:
- وبقية الاسم.. نوف ماذا.. أقصد بقية الاسم..
واشتد التردد بين عينيها دون أن تتكلم.. وكانت صديقتها المصرية تقف بينهما متتبعة كل لفظ ينطق به أحدهما فقالت كأنها تنقذ المرأة الغريبة:
- لا يا أستاذ.. لا داعى لأن تعرف اسم العائلة.. أرجوك
وسكت ..
وقالت المرأة الغريبة وهى تتجه نحو الباب وبين شفتيها ابتسامة كأنها تعتذر بها:
- من يدرى .. قد تعرف كل شىء..
وهز رأسه مبتسما كأنه لا ينتظر منها أكثر مما تريد أن تقول.. ولكنه قبل أن تخطو خارج الباب لمس كتفها كأنه يستوقفها وقال:
- هل يمكن أن تسمعى أول نصيحة منى؟
ورفعت إليه عينيها فى دهشة وابتسامتها فوق شفتيها وقبل أن ترد استطرد قائلا:

- لا تتزينى بكل هذه المجوهرات.. إن قيمتها تضيع مع تكاثرها كالوجه الجميل عندما يضيع جماله فى الزحام ولا يعود يلفت النظر.
وكان يتحدث وهو يشير بأصبعه إلى المشبك الماسى العريض الذى يتدلى من عنقها وإلى الأساور الماسية التى تغطى معصميها وإلى الخواتم الماسية التى تبرق من فوق أصبعها.. وكان يتحدث فى لهجة جادة كأنه يلقى نصيحة لإنقاذ البشرية وإن كان فى الواقع يخفف من العقدة التى أصيب بها عندما رأى نفسه أمام كل هذه القطع من الماس.
وامتلأت عيناها بالدهشة وهى تنظر إليه دون أن ترد عليه..
وقالت صديقتها المصرية بصوت حاد:
- أعطاها الله أكثر يا أستاذ..
ولم يرد.. وترك السفرجى يصحبهما حتى باب الخروج من البيت.

●●●

وقد قضى يومه وهو لا يستطيع أن ينزع صورة هذه الفتاةالعربية من فكره وخياله.. إنه يقول فتاة ربما لصغر سنها الذى يحس به ولكنها امرأة متزوجة وأنجبت ولدين وابنة.. ولاشك أنها تحمل قصة عجيبة وهو يهوى البحث عن القصص.. خصوصا قصص الناس فى البلاد البعيدة.. إنه يعتقد أن القصة هى أقوى أداة للتعبير عن كل مجتمع غريب وكشف أسراره.. أقوى مما ينشر من دراسات حول هذا المجتمع وأقوى مما يمكن أن يقرأه فى الصحف من أخبار الناس فى هذا المجتمع.. حتى أنه عندما يهتم بمعرفة بلد من بلاد الدنيا أو عندما يهم بزيارة أى بلد ويريد أن يعرف لون مجتمعها فإنه يبحث عن القصص التى كتبها كتاب هذا البلد

ويقـرؤها ويحس أنه عرف البلـد.. ولقد قـرأ قصـصـا يابانيـة وهندية وأفريقيـة وأمريكية وروسية.. كـان يكتشف العالم من خلال القصـص. إن قراءة القصص هى الدراسة الواقـعية لأى مجتمع.. ولاشك أنـه سيعرف الكثير عن المجـتمع الذى تعيش فيه هذه المرأة بعد أن يسمع قصتها.

ولكن أى مجتمع هو؟

أى بلد عربى تنتمى إليه وجاءت منه؟

لقد قـالت له إن اسمـها «نوف».. إنهـا أول مرة يسـمع هذا الاسم.. ترى أى مجتمع لأى بلد عـربى يتردد فيه هذا الاسم.. إنه قـد لا يكون اسـمهـا ولكن لاشك إنـها اخـتـارته لأنه اسم متردد فى مجتمعها.

وقد تعـود أن يترك خـياله ينطلق إلى آخـر الدنيا.. وخـياله يتبـعه دائما فـهو يحـمله إلى آفاق محـيرة تبـعده عن الواقع.. وخياله لا يريد أن يرحمه من هذه الـمرأة العربية التى جاءته.. لا يريحه من نوف.

فى صـبـاح اليـوم التالى.. دق جـرس التلـيفـون.. وقـالت اسمهـا.. نوف.. إنهـا تتحدث إلى تليفـون العائلة لأنه نسى أن يعطيها رقم تليفونه الخاص الموضوع فى غرفة المكتب.. وهى نمرة سـرية لا تسجل فى دفتـر الأرقام.. ربمـا لم يعطها هذه النمرة الخاصة السرية لأن ما بينهما لم يصل بعد إلى أن يكون خاصا سريا.

وأمسك سـماعة التليـفون وهو يشد أنفـاسه حتى يحـتفظ بشخصية الأستاذ الكبير.. شخصية الطبيب.. ولكنها بمجرد أن سمعت صوته انطلقت تتكلم بسرعة كأنها لا تستطيع أن تتكلم طويلا.. كأنها تخاف أن يضبطها أحد وهى تتكلم.. وكانت هذه

الألفاظ السريعة تختلط بلهجتها فـيسمع منها كلمات لا يفهمها ولكنه فهم ما تريد.

إنه لن يستطيع أن يأتى إليها فى الموعد.. ولكنه يستطيع أن يذهب للقـائهـا فى فندق شيـراتون ويصـعـد توا إلى الغرفـة ٦١٢.. على أن يكون ذلك فى الساعة الثالثـة بعد الظهر.. وقد أعدت كل شىء لكى يكون لقاء آمنا.

وقال لها وهو حائر:

- سأحاول ..

وقالت بسرعة:

- سانتظرك..

وألقت سماعة التليفون دون كلمة تودعه بها..



إنه ليس مستريحا إلى دعوة نوف.

كيف يذهب للقائها فى الفندق الذى تقيم فيه وداخل غرفة فى حين أنها قالت له : إنها بصحبة زوجها وأولادها وأفراد من عائلتها.. وأنها ليست حرة.. ولا تستطيع أن تخرج إلى الشارع وحدها.. حتى أنها اضطرت أن تتحايل وتستعين بصديقتها المصرية حتى تأتى إلى لقائه فى بيته.. بيت العائلة.. هل ستقدمه إلى زوجها وعائلتها عندما يذهب إلى لقائها.. أم ستخبئه فى دولاب أو تحت السرير إذا ضبطت وهو معها.. ثم كيف تجرؤ على دعوته؟ إنها هى التى فى حاجة إليه وهى التى يجب أن تسعى إليه.. وهو لا يهمه أن يراها وليس بينهما ما يدفعه إلى أن يتنازل عن مكانته كأستاذ كبير ويمرمط نفسه بالذهاب إليها بقدميه.. ربما كانت لها مكانة فى بلدها عوّدتها على أن تتصرف كأنها صاحبة الأمر.. وكل الناس خدم لها يتمرغون تحت اقدامها.. وقد أصدرت أمرها إليه ليأتى فى الفندق.. وربما كانت سيدة مجنونة مغامرة من هذا الصنف الذى تدفعه عقدة المغامرة إلى التعرف بالمشاهير.. كالنساء اللاتى يجرين وراء نجوم السينما أو نجوم الغناء.. ويلقين أنفسهن عليهم لمجرد الفرجة.. كيف يتكلم هؤلاء المشاهير.. وكيف

يتحركون.. وكيف يأخذون المرأة إلى أحضانهم؟ مجرد فرجة.. كان كلا منهن تصنع لنفسها فيلما خاصا تتفرج عليه غير الأفلام التى أعجبت بمشاهدتها فى السينما أو فى التليفزيون وغير مكتفية بما تسمعه فى الاذاعة.. تريد اذاعة خاصة لنفسها.. ونوف لم تختر لنفسها فنانا من المطربين أو الممثلين ولكنها اختارت أديبا مشهورا قرأت له كل البنات القصص التى يكتبها وذبن اعجابا به وبالقصص وهى تريد أن تتباهى على كل البنات بأن لها وحدها قصة معه.. وربما يكتبها يوما وتصبح قصتها.. وحتى لو لم يكتبها فإنها تستطيع أن تحكيها وتتندر بها.. وكثيرات من البنات مصابات بهذه العقدة.. عقدة الاعجاب الذى يدفعهن إلى مطاردة الفنانين الذين يعجبن بهم لمجرد الفرجة عليهم.. وهو اعجاب قد يقوى ويشتد إلى حد يخيل لصاحبته أنها تحب هذا الفنان حبا كاملا طاغيا.. ومشكلة الكثيرات أنهن لا يفرقن بين الإعجاب والحب.. إلا بعد أن يخفت الاعجاب فيخفت معه الحب.

وهو يعرف كل ذلك وعاش فيه.. بل أنه فى شبابه كان يستسلم لهذا الاعجاب ويعطى للمعجبات كل ما يردن منه متفاخرا متباهيا بما يعطى وما يأخذ.. ولكنه لم يتحمل أبدا مسئولية الحب الذى يخيل لأحدى المعجبات أنها وصلت إليه.. لقد كان دائما يجعل للاعجاب عالما آخر غير عالم الحب.. الاعجاب شىء والحب شىء آخر.. إنه هو نفسه وهو صغير.. وهو لا يزال طالبا فى المدارس.. كان يخلط بين الإعجاب والحب.. كان يتابع الممثلات على شاشة السينما ويشتد اعجابه باحداهن حتى يصل إلى تصور أنه فى حالة حب ويبدأ فى كتابة خطابات غرامية تعبر عن أحاسيس ساخنة يكاد

يقسم بصدقها.. ويرسل خطاباته ولا يأتيه الرد.. ويبحث عن عنوان بيتها ويذهب إلى هناك ويطوف حول البيت إلى أن يراها مرة من بعيد.. ثم لا تنقضى شهور حتى يرى هذا الحب قد ذهب لأن أعجابه بدأ ينتقل إلى وجه جديد.. لقد كان مجنونا.. مجنونا بالفن.

لعل نوف مجرد امرأة مجنونة.

وهو لن يذهب إليها.. إذا كانت هى مجنونة فهو لم يعد مجنونا.. إنها مغامرة لا يمكن أن يعرض نفسه لها.. لم تعد مكانته ولا سنه يتيحان أن يعرض نفسه لمغامرة من هذا النوع من المغامرات.. إنها تريد أن تتفرج عليه وليس فيها ما يدفعه إلى الفرجة عليها.

وهو تائه حائر مع أفكاره.

ووصلت الساعة إلى الثالثة بعد الظهر.. الموعد الذى حددته له.. ولم يتحرك.

ولكنه فجأة قفز كأنه يهم أن يجرى.

ليكن صادقا مع نفسه.. أنه هو أيضا يود أن يتفرج عليها، وكل حياته التى تلهمه فنه قائمة على الفرجة.. على الناس وعلى الحيوانات ، ومن يدرى.. ربما كانت تعانى فعلا من مشكلة وهى فى حاجة إليه لينقذها منها ، وهو مسئول عن قارئاته.

وذهب إليها.

ودخل بهو الفندق وسار فى خطوات سريعة ورأسه منكس وعيناه مرخيتان مركزتان على الأرض.. لا يريد أن يرى أحدا أو يراه أحد.. ماذا يمكن أن يقول لو صادفه أحد معارفه؟ وخطا سريعا إلى داخل المصعد وصعد به إلى الدور

السادس.. وهدأ قليلا.. وبدأ يرفع عـينيه إلى الأبواب باحثا عن الرقم ٦١٢.. وقـرع الباب بيـد مرتعـشة وقلب مـرتعش.. من يدرى.. ربمـا كـان زوجـهـا هو الذى يـفـتح له البـاب.. وهو لا يحمل ما يمكن أن يسىء إلـى الزوج.. إنها زيارة بريئة بناء على طلب الزوجـة.. زيارة عمـل.. لكن من يدرى؟ ماذا يعـرف الزوج أو كيف يمكـن أن يستقـبله؟ ربما استـقبله برصـاصـة.. ويموت.. لو مـات فيجب أن يخلد ويكرم تكريـما خاصا.. فـقد مات أثناء تأدية عمله.

والحمد لله.

لقد كانت صديقتها المصرية التى لا يعرف اسمها حتى الآن هى التى فتحت الباب.. وشدته من يده إلى الداخل بسرعة وهى تغلق الباب وراءه قائلة :

ـ أهلا.. لقد تأخرت حتى كدنا نيأس ونترك الغرفة.

ولم يرد عليهـا.. وتعلقت عيناه بنوف التى وقـفت تستـقبله وعيناها مرخيتان وقد اكتنزت وجنتاها بحمرة دمائها كأنها فى منتهى الخـفر والحيـاء.. ومدت له يدها تصافـحه مبتـعدة عنه بطول ذراعها.. وأحس فى يدها ببرودة كأن أعـصابها امتصت كل حرارتها.. وسمعها تقول بصوت خفيض :

ـ أهلا بك.

وقال وهو يضغط على يدها الممدودة إليه :

ـ آسف.. تأخرت.

وقاطعتـهما الصديقـة المصرية وهى تقدم له المـقعد الذى يجلس عليه :

ـ آسفة.. لن نستطيع أن نقدم لك شـيئا حتى لا يدخل علينا الجرسون.

ثم التفتت إلى نوف مستطردة :

ـ سأنزل.. وأعود بـعد ساعة كمـا اتفقنا.. وسأترك مـفتاح الغرفة فى مكتب الفندق.. حتـى يعلم من يسأل أنى خرجت فلا يحاول أحد أن يصعد إلى الغرفة.

وقالت نوف بسرعـة وبصوت مـرتعش لا يخلو من لهـجة أمره :

ـ لا.. الأفضـل أن تحتفـظى بالمفـتاح معـك أو تتركيـه فى مكانه.. لو عرف أحد أنـك خرجت فسيتـساءل أين أنا؟ ويبدآن فى البحث عنى.

وقالت الصديقة بلا اهتمام وهى تلوى شفتيها بامتعاض :

ـ كما تريدين.

ثم التفتت إليه واستطردت :

ـ عن اذنك.

ثم فتـحت الباب وخـرجت وأغلقتـه وراءها وهى تتعـمد ألا تحدث صوتا كأنها حريصة على أن تصون باب الأسرار.

وهو لم يفـهم شيـئا مـما سمـعه.. ودار بعـينيه فى أنـحاء الغرفة كأنـه يقوم بعملية استكشاف ليطمـئن نفسه.. ليس فى الغرفة إلى هذين المقعدين فى مواجهة فراش النوم وباقى قطع الأثاث التى توضع فى كل غـرفة.. والتفت إلى نوف مـبتسـما وهو يحاول أن يتخلص من خوفه ويخفف عنها رعشتها:

ـ لماذا طلبت أن نلتـقى فى الفندق.. لقد احترت حـتى كدت اعتذر.. لا شك أن اللقاء فى مكتبى أهدأ وأكثر أمانا.

وقـالت وقد بدت أكـثر هدوءا بعـد أن جلست على المـقعـد الآخر وقـد اتسعت ابتـسامـتهـا تحت أنفهـا الطويل وعينيـهـا الواسعتين السوداويين.

- قلت إنى لا أستطيع أن أخرج إلى الشارع وحدى بلا أفراد العائلة.. وقد استطعت أن أتحايل أمس وأخرج إليك.. ولكنى اليوم لم استطع التحايل.. كلما عرضت أن أخرج صمموا على أن يصحبنى أحد من أفراد العائلة.. ولم أجد وسيلة للقائنا إلا هنا.

وقال من خلال دهشته :

- وهل هذه غرفتك ؟

وقالت بسرعة وابتسامتها تتسع كأنها تتباهى بذكائها :

- لا طبعا.. لقد تحايلت تحايلاً من نوع جديد.. فقد اتفقت مع صديقتى سميحة على أن نستأجر باسمها غرفة فى الفندق بحجة أنها تريد أن تكون بجانبنا وتقدم لنا خدماتها.. وأستطيع بذلك أن أهرب إليها فى غرفتها كلما أردت أن أبتعد عن العائلة.

وقال فى وجل :

- قد يأتى أحد من باقى أفراد العائلة للسؤال عن صديقتك.

وقالت نوف من خلال ابتسامتها :

- لا يمكن.. إنها لا تعتبر صديقة لهم.. إنها معرفة.. ولا يمكن أن تصل معرفة أحد منهم بها إلى حد زيارتها.. وهم يطمئنون إليها ويثقون فيها لأنها فعلا لا تكف عن تقديم خدماتها طوال اقامتنا فى مصر.. ولكنهم يلوموننى لأنهم يتصورون أنى رفعت الكلفة بينى وبينها حتى أنى أختلى بها عندما تزورنا.. ولا شك أنهم يلوموننى لأنى أزورها فى غرفتها.. ولكنهم مطمئنون.

وقال وهو لا يزال وجلا :

- قد يشكون فى تصرفاتك ويحاولون اكتشاف تحايلك.

وقالت وهى ترفع إليه كل وجهها وتلفه بابتسامتها كأنها تطمئنه :

- ليس بيننا من يشك فى الآخر ولا من يتصور أن نتبادل الكذب حتى لو كان كذبا بريئا.. ورغم أنى معروفة بينهم بأنى شخصية مختلفة إلا أنهم لا ينتظرون منى الكذب وإن كانوا ينتظرون منى الجرأة على المفاجآت.

قال وهو لا يزال فى وجله :

- وأين زوجك الآن؟

وقالت ضاحكة :

- نائم ولن يستيقظ قبل السابعة أو الثامنة.. إنه ينام النهار ويصحو الليل.

قال وكأنه ينهرها :

- قد تنتابه حالة أرق ويقوم من النوم ويبحث عنك.. فإذا علم أنك عند صديقتك جاء إليك.. إلينا.

وقالت وهى تنظر إليه فى توسل أن يطمئن :

- الأرق من نصيبى وحدى.. وحتى لو أراد أن يتصل بى فلن يأتى إلى هنا ولكنه قد يتصل بالتليفون.. وأنت لا تعرفه.. ولكنى أعرف أنه لا يصاب بالأرق ولا يشك فى.. وكل ما يهمه هو الحرص على التقاليد.. تقاليد بلدنا.

وضغط على أعصابه حتى يهدأ.. لقد عود نفسه منذ زمان طويل على الاستسلام لكل ما يجد نفسه فيه.. وصحيح أ نه صادفته بعض النكبات نتيجة استسلامه لكن ليس دائما.. فليستسلم هذه المرة مادام هو الذى اختار أن يقدم على ما هو فيه..

وعاد ينظر إليها مدعيا الهدوء.. واتسعت ابتسامته عندما

لاحظ أنها ليست مغطاة بالماس كما رآها أول مرة.. ليس فى أصبعها إلا خاتم يحمل فصا صغيرا من الماس.. قيراطان أو ثلاثة.. وليس حول عنقها سوى سلسلة رفيعة من الذهب تتدلى منها رقعة صغيرة - تحمل ما شاء الله - محاطة بفصوص رفيعة من الماس.. ولكن ثوبها لا يزال مغالى فى اختيار مناسبته.. لعلها تعودت أن تختار ثيابها وفقا لأثمانها.. وحذاؤها لا يزال من هذا الصنف الذى لم يتعود أن يراه ولعله من آخر مبتكرات الموضة.. حذاء متعدد الألوان.. المهم أنها سمعت كلامه وخففت من عدد الحلى التى تتحلى بها..

وقال لها من خلال ابتسامة هادئة :

- إنك لم تقولى لى.. أنت من أين.. من أى بلد؟

وقالت مبتسمة وهى ترخى عينيها عنه:

- ليس الآن.. أرجوك لا تطلب منى أكثر مما أقول.

وقال من خلال ابتسامته :

- إنك ساذجة.. إنى استطيع أن انزل إلى مكتب الفندق وأبحث فى دفاتر النزلاء وأعرف كل شىء عنك.

وقالت فى جزع أقرب إلى التوسل :

- إنى واثقة أنك لن تفعل.. إنك لا تعلم مدى ثقتى فيك.. إنى أقرأ لك منذ تعلمت أن اقرأ.. وأعيش كل حياتى فى سطورك حتى أنى استشهد بها فى كلامى.. وثقتى فيك هى التى دفعتنى إلى لقائك.. ولن تخيب ثقتى فيك أبدا.. وأنا لا أخاف أن تعرف كل شىء عنى ولكن دعنى ارتاح إلى الكلام معك.. دعنى أختار ما أقوله لا ما تريدنى أن أقول.

وقال وهو سعيد بكل هذه الثقة التى ترضى غروره.. غرور أى فنان :

- لك حق.. إنى لا أريد أن أعرف إلا كما تقدمين لى نفسك.. إنى بذلك أعرفك أكثر.. فإن المعرفة لا تقوم على معرفة المعلومات ولكن على معرفة الشخصية.. والشخصية هى ما أسمعه منك لا ما أعرفه عنك.. اطمئنى.. لن أحاول أكثر من الاستماع إليك.. والآن.. هل نبدأ الحديث عن المشكلة.. لقد قلت لى أنك تواجهين مشكلة.

وقالت بسرعة عصبية :

- مشكلة صديقتى لا مشكلتى.

إنها لا تزال تصر على الهروب من مشكلتها بنسبتها إلى فتاة أخرى.. لا يهم.. هذا ما تعوده من كل صاحبات المشاكل..

وقال فى هدوء كأنه يصدقها :

- لنبدأ فى بحث مشكلة صديقتك.

واعتدلت فى جلستها واهتزت أعصاب عنقها كأنها تبتلع ريقا جافا لا تستطيع أن تبتلعه وقالت وهى تتنحنح :

- لا أدرى من أين أبدأ؟

وقال كأنه يعينها على تناول الدواء وكل ما يحصر فكره فى انتظار قصتها هى لا قصة صديقة من صديقاتها:

- هل نبدأ بحكاية زواج صديقتك.. كيف تزوجت؟

وقالت وعيناها ساهمتان كأنها تحادث نفسها :

- لا.. لم يكن لزواجها حكاية ولا مشكلة.. إنها منذ بدأت تعى وتحس وهى تعانى مشكلة غريبة.. مشكلة حنان يلح عليها كى تلتقى بأبيها.. إنها تحبه.. ولكنها لا تراه إلا من بعيد وكأنها تحب رجلا لا يعرفها وتتمنى أن تعرفه.. ولكنه أبوها ومن حقها أن تلتقى به وأن تهنأ به كأب وحتى لو كان كل أخوتها ومن حولها لا يتجرأون على أن يطلبوا من الأب غير

ما يفرضه عليهم.. فهى وحدها من بين كل أفراد العائلة التى تفكر فى تحدى انانية أبيها والاستيلاء على حقها عليه.. ليس حقا أكثر من أن تلتقى به.. وتحس به.. يدللها ويتحدث إليها.. وتسمع صوته.. حتى صوته لم تسمعه.

وسكتت نوف برهة وقد أحنت رأسها على صدرها كأنها ابتعدت إلى مشوار طويل.. ثم بدأت تحكى دون تتوقف كأنها لا تحكى لأحد ولكنها تحكى لنفسها.

- كان أبى.

وسكتت وارتعشت عيناها كأنها تنبهت إلى خطئها ثم استطردت قائلة :

- أقصد كان أبوها يظهر فى البيت فجأة.. ويضج البيت كله بل المدينة كلها احتفالا باستقباله.. ولم يكن عندما يظهر يحاول أن يجتمع بأولاده يسأل عنهم.. بل لم يكن يبدأ بلقاء زوجته.. كان كل ما يحرص عليه بالنسبة للعائلة عندما يظهر هو أن يبحث عن أمه ويختلى بها ساعات ثم يخرج إلى المبنى الواسع الكبير المقام بجانب البيت والذى يعتبر صالة الاستقبال.. والذى تحتفل العائلة بداخله بكل المناسبات حتى مناسبات الزواج.. ويجتمع فيه كل الرجال المحيطين بالعائلة طوال ليالى رمضان يسمعون القرآن ويتباهون بتبادل الأشعار.. وكانت العائلة حريصة على أن يضم هذا المبنى كل ما يعبر عن عزها وثرائها ومجدها العريق.. إن نوافذه مسطورة بالزجاج الملون الرائع.. الأحمر والأزرق والأصفر.. ولا تستطيع أن ترى شيئا من خلاله حتى لا تتجرأ نساء العائلة عندما يضمهن المبنى أن ينظرن إلى الخارج.. أو تتجرأ عين من الخارج على رؤية الداخل.. وكان سقف المبنى مغطى

بخشب «الدنكل» الذى كان الأغنياء يستوردونه من زنجبار ليزينوا به بيوتهم.. إنه أرقى وأغلى أنواع الخشب.. والحوائط كلها من الأسمنت المنقوش نقوشا زاهية.. والأرض كلها مغطاة بالسجاد العجمى.. كان المبنى كانه متحف للروائع الفنية.. أو على الأصح كان مظهرا لمجد العائلة كلها.. ويلتقى الأب فى المبنى بأصدقائه وكل الشخصيات التى تسعى للترحيب به بمناسبة ظهوره.. ويبقى حتى آخر الليل.. ثم يعود ويدخل البيت.. وبحكم التعود الذى فرضته التقاليد يدخل إلى زوجته.. ويرقد فى فراشها.. ويصحو فى اليوم التالى ليعود إلى أصدقائه ومعارفه فى المبنى.. ثم ينتهى الليل ليكون بجانب زوجته على الفراش.. إنه لا يتبادل معها الكلام.. لا يحاول أن يحكى لها عن نفسه أو أن يسألها عن نفسها أو عن أولاده.. أن الزوجة ليست سوى الإناء الشرعى للانجاب.. لا أكثر من ذلك.. بل أن صديقتى تقول : إن أمها لو رأت أباها صدفة فى مكان عام فإنها لا تعرفه.. إنها لا تلتقى به إلا كأنه غريب.. وبين كل لقاء وآخر سنوات.. وتلتقى به فى الليل.. لقاء ساعة يلقى خلالها فى بطنها بذور الإنجاب.. ثم لا شىء أكثر من ذلك.. والأم متحملة.. صامتة.. بل أنها قد لا تدرى أن الحياة يمكن أن تعطى للزوجة متعا أكثر من مجرد الانجاب من زوجها.. وصديقتى ليست كأمها.. أنها متعلمة وليست جاهلة مثلها.. أو أن طبيعتها تدفعها إلى الحصول على حقوقها والتمتع بها.. متعة الابنة بأبيها.. وعندما كان يظهر فى البيت كانت تعرف أن هذا هو أبوها.. قالوا لها إنه أبوها.. ولكنها لا تجد طريقا إليه.. وهى منذ وعت وهى تبحث عن هذا الطريق.. وقد كانت وهى لا تزال فى الثامنة من عمرها تتسلل

إلى المبنى الكبير وتختبىء وراء المقاعد وتعلق عينيها بأبيها.. وقلبها ينبض.. أنها تحس به كأنه سيد الرجال.. كأنه ملك الملوك.. وتبهر بجماله.. وجهه الأسمر الذى يشدك إليه كأنه يسحرك.. ولحيته الصغيرة المشذبة التى تلف ذقنه.. وقوامه الطويل الرفيع كأنه قوام ملاك من الملائكة.. وابتسامته الهادئة التى لا تكف عن شفتيه وكأنه يبارك بها الناس ويعلن رضاءه عنهم.. وكانت تفر من المبنى قبل أن تعرض نفسها للمحات أبيها.. أو قبل أن يبدأ الزائرون فى مراعاة وجودها.. فمن المحرم أن تدخل البنات أو النساء هذا المبنى إلا إذا كانت هناك مناسبة خاصة تبيح وجودهن.. وكانت تعود إلى البيت وهى تعيش بكل أحساسها وكل خيالها.. كانت تعيش كأنها معه فى حلم.. حلم لا تستطيع أن تفيق منه.. وفى يوم وضعت خطة جديدة.. انتظرت منذ الصباح أمام باب غرفة نومه.. مرت ساعات طويلة وهى قابعة عند الباب.. أنه لا يصحو إلا عند الغروب.. وصحا.. وخرج من باب الغرفة.. فجرت إليه وفاجأته وهى تصيح :

ـ بابا.

ونظر إليها فى دهشة.. ثم علت شفتيه ابتسامة كبيرة حلوة ورفعها بذراعيه عاليا وهو يقول ضاحكا :

ـ من أنت ؟

وقالت مرحة وهى تحس بجسدها بين يديه كأنها بين يدى حبها الوحيد :

ـ أنا ودود.

وقال من خلال ضحكة :

ـ والله جميلة يا ودود.

ثم أنزلها على الأرض.. ومرة واحدة سكتت ضحكته واختفت ابتسامته وأدار لها ظهره وابتعد عنها.. وهى تنظر إليه وتهم أن تبكى.. ولكنها على الأقل سمعت منه كلمة.. سمعت صوته.. وأحست بلمسة يديه.. وإن كانت أحلامها بدأت تنقلها إلى دنيا أوسع وأجمل.. دنياها التى تضمها إلى أبيها.

وتنهدت نوف وعيناها لا تزالان ساهمتين كأنها تنظر إلى بعيد واستطردت قائلة :

ـ وكما هى العادة لم يمض أسبوع أو أسبوعان حتى اختفى ثانية.. اختفى فجأة كما ظهر فجأة.. اختفى ليغيب سنة أو سنتين ثم يعود ويفاجئنا بظهوره.. أقصد يفاجىء عائلته.. هل تصدق أن هذا الظهور المفاجىء قد جمع له تسعة أبناء.. أنه لا يعرف وجوههم ولا أسماء معظمهم فقد ولدوا كلهم فى غيبته وكان الأعمام والأخوال هم الذين يتولون أمرهم ويختارون لهم أسماءهم ويعدون لهم المستقبل.. بل إنه تطور حياته لم ير ابنه الأصغر إلا بعد أن أصبح فى الثانية والعشرين من عمره.. ورآه صدفة ولم يكن يعرف أن اسمه نايف.. وأولاده انفسهم تعودوا على غيبته عنهم.. تعودوا على انه ليس منهم وهم ليسوا منه.. كانوا يسمعون عنه وعن أخباره كأنهم يسمعون عن غريب.. ما عدا ابنته ودود.. صديقتى.. إن احلامها لم ترحمها وحبها له ينمو ويشتد كلما كبرت.. كان كأنه حب.. إنها لا تستطيع أن تبتعد بخيالها عن قوامه الرفيع الطويل.. وعن لحيته الصغيرة التى تلف ذقنه.. وعن ابتسامته التى يبارك بها الناس.. هل يمكن أن تحب ابنة اباها إلى هذا الحد.. بل تتحمل مسئوليته وهى تحلم وتتحمل اكثر بعد أن نضجت وكبرت.

واستدارت نوف بعينيها إليه كأنها أفاقت من أحلامهاوقالت كأنها تستغيث به :

ـ هل هذا هو حب أم جنون؟

وقال وكأنه هو الآخر يعود من العالم الذى نقلته اليهم وهو مستغرق فى كل كلمة من كلماتها.. وقال من خلال ابتسامة يحاول أن يحرضها بها على استمرار فى الحكاية :

ـ لا تسألينى الآن.. إنى فى انتظار أن أسمع وأفهم.. وقولى لى.. أين كان يختفى ولماذا كان يعود ويظهر؟

وسهمت برهة وأرخت عينيها عنه ثم قالت :

ـ لعلى أخطأت فى اختيار البداية.. كان يجب أن أبدأ من أول الحكاية.. حكاية العائلة كلها.

وقال ضاحكا كأنه يخفف عنها :

ـ لا تهم البداية ما دمنا سنصل إلى النهاية.. لكن أرجوك أن تقولى لى اسمه.. اسم الأب.. إنه بطل القصة ويجب أن يكون له اسم.

وترددت قليلا ثم انطلقت قائلة فى حدة :

ـ اسمه عدوان.. وهذا ليس اسمه.. ولكنه الاسم الذى اطلقته عليه.. أقصد الاسم الذى اطلقته عليه صديقتى لأنه كان المسئول عن العدوان الذى تحملته.. فأسمته عدوان.. ولا تسألنى عن اسمه الحقيقى الكامل.. أرجوك.

وقال مبتسما ابتسامة تطمئنها :

ـ قلت لك : إنى لا أريد أكثر مما أسمعه منك.. حتى لو كان ما أسمعه أسماء وهمية بما فيها اسمك الذى سمعتك منك.

وابتسمت نوف فى خفر كأنها تعترف بأنها كذبت عليه فى تقديم اسمها وتعتذر له.. ثم ألقت نوف ظهرها على مسند

المقعد وبدأت عيناها تسرحان إلى بعيد وأنفاسها تتهدج كأنها تشق طريقها إلى الماضى البعيد.. ولكنها ما كادت تهم بالكلام حتى فتح الباب ودخلت صديقتها المصرية سميحة.

وارتعشت نوف كأنها تطرد عن نفسها خيالها وقفزت واقفة تستقبل صديقتها.. إنها لا تريد أن تبدو أمام صديقتها فى أى حالة ليست طبيعية حتى حالة الهيام فى الذكريات.

وقال سميحة بسرعة :

ـ هل دق جرس التليفون؟

وقالت نوف وهى تبتسم لها كأنها تشكرها على خدماتها :

ـ لا.. لم يدق.

وقالت سميحة :

ـ لقد تأخرت قليلا وكنت أخشى أن يبحثوا عنك فى هذه الغرفة.

وقالت نوف ضاحكة :

ـ الحمد لله.. أن الخطة ناجحة.

وهو جالس ينقل عينيه بين السيدتين الصغيرتين كأنه يحاول أن يتخيل لوحة يريد أن يرسمها بقلمه.. واقتربت منه نوف وقالت :

ـ إنى آسفة.. لنكمل غدا.. هل استطيع أن ألقاك غدا؟

وقام واقفا وهو يحس أن نوف تحاول أن تعطيه أكثر.. عيناها تجرأتا على عينيه.. وابتسامتها تكاد تلفه كله.. ويدها التى تصافحه بها مستريحة فى يده كأنها تنام فى راحة.. ربما تعودت عليه أكثر ولم تعد تحس به كغريب.. إنه طبيب تثق فيه وترتاح إليه.. وقال :

ـ إننى حريص على أن ألقاك ولكنى أفضل ألا نلتقى هنا..

إن لقاءنا فى مكتبى أكثر أمانا مادمت مقيدة إلى هذا الحد.

وقالت من خلال ابتسامتها المرتاحة على شفتيها :

ـ إننى لست مقـيدة ولكنى تعودت أن أقيد نـفسى.. تعودت أن احسب حـساب من حولى قـبل أن أحسب حسـاب نفسى.. ورغم ذلك سـأحاول.. سأحـاول أن يكون لقاؤنا فى مكـتبك.. وسأتصل بك صباح غد فى التليفـون وإن لم أستطع فستتصل بك سميحة.

وقال وابتسامته ساخرة :

ـ حتى التليفون؟

وقالت ضاحكة :

ـ المهم أن يوجد تليفون.

وسكت.. وسقطت عـيناه على الفراش الذى يحتل الغـرفة.. كيف تقابله فتاة بجانب فراش؟

إن وجود الفراش يثير نزعات اسـتعماله.. إنه قد يغريه بأن يرقـد عليه ونـوف بين احضـانه.. ولكنهـا واثقـة فيـه.. ولعله أصبح فى السن الذى يـثير الثقـة من هذه الناحيـة.. لم يعد له شباب تحاول أى بنت أن تتقيه.

ورغم ذلك فهـو يحس أنه يقاوم هذا الفـراش.. ربما لو بقى بجانبه مدة أطول لضعفت مقاومته.

وخـرج من الغرفـة.. وأخـذ يخطو سريعـا فى بهـو الفندق ورأسه منكس وعـيناه مرخيـتان إلى الأرض.. لا يريد أن يرى أحدا ولا أن يراه أحـد.. ماذا يقول ؟ أين كان فى أى غـرفة من هذا الفندق؟

٣

كان مصممـا على ألا يذهب إليها مرة ثانية فى الغرفة التى خصصتها للقائهما فى الفندق.. أنه لم يعـد يحـتمل مـثل هذه المـغـامـرات.. ورغم أن شخصـيتها وقـصتها يشـدانه إليها ويثيـران فيه الشهـوة اتى أصبحت كأنهـا من طبيعـتها.. شهـوة البحث فى جميع أنحاء العالم عن القصص الجـديدة، مهما كلفه البحث من تحمـل المغامـرة.. ورغم أن هذه القـصة بالذات أشـد اغراء له لانهـا قصـة ليـست مـصريـة وهو قد شـبع من قـصص أهل مصر.. رغم كل ذلك فهو لن يذهب للقائها فى الفندق.. أنه حتى الآن لا يزال حـائرا فيـها حـتى أنه لا يستطيع أن يطمـئن على نفسه وهو يستسلم لها.. أنهـم يقولون : إن الصحافة هى مهنة البـحث عن المتـاعب وهواية كتـابة القصص هى أيضـا هواية البحث عن المـتاعب.. ولكنه بعد هذا العمـر الطويل وهو يعيش هواية جمع القصص لم يعد يحتمل تعريض نفسه للمتاعب.

وفى صباح اليوم التالى دق جرس التليفون فى غرفة مكتبه الخاص.. وكان قد أعطاها النمرة السرية.. وسمع صوتها وهى تحاول أن تجـعل من لهجتـها لهجـة يفهمـها.. وقالت بسـرعة كأنها تخاف أن يضبطها أحد وهى تتحدث فى التليفون :

ـ لن أستطيع لقاءك اليوم.. حاولت كثيرا ولكن لن استطيع..

غدا سألقاك.. إننى متأكدة أنى أستطيع لقاءك غدا.. أعددت كل شىء.. وسألقاك فى مكتبك.. الساعة الثالثة بعد الظهر.

وقبل أن يرد عليها كانت قد انتهت المحادثة والقت بسماعة التليفون فى وجهه.

لأشك أنها راعت رجاءه فى ألا يكون اللقاء فى الفندق ولذلك حرصت على أن تلقاه فى مكتبه.. ولكن لماذا تختار دائما موعد الساعة الثالثة بعد الظهر؟ إنه تعود أن ينام فى هذا الموعد.. تعود إذا أكل وأشبع بطنه أن ينام مباشرة بعد الأكل.. لذلك ينام مباشرة بعد تناول الطعام ساعة الغداء.. ولا يتناول افطارا مكتفيا بفنجان شاى حتى لا يتعب بطنه وينام.. ولا يتناول طعام العشاء إلا قبل النوم حتى لو كان خارج البيت.. فهو يقبل الدعوة ولا يأكل.. حتى لا ينام.. وإذا كان قد استسلم لموعدها فى الساعة الثالثة بعد الظهر فمعنى هذا أنه لن يتناول قبلها طعام الغداء.. لا يهم.. أنه فى حالة عمل ويجب أن يتحمل حتى لو تحمل الجوع.

وقضى يومه متفرغا لعمله.. يكتب.. ولكنه كان يجد نفسه بين حين وآخر يتوقف عن العمل وينطلق وراءها.. وراء نوف.. يحاول أن يكمل بخياله القصة التى بدأتها معه.. ثم يطوف بخياله بملامحها كأنه يستعرض لوحة أثارت أعجابه.. عيناها السوداوان الواسعتان.. وأنفها الطويل قليلا ويشرف على شفتيها المكتنزتين اللتين تضجان بشبابها.. وشعرها الأسود الغزير الذى تعقصه كتاج تتباهى به فوق رأسها.... ثم يعود يقاوم خياله لينصرف إلى عمله.

وفى اليوم التالى كان خياله أكثر استسلاما لها.. لم يستطع احساسه بعمله أن يأخذه بعيدا عنها.. وبقى فى انتظارها دون

أن يتناول طعام الغداء.. وكان يثور هنيهات على استسلامه لهذا الانتظار ولكنه كان يعذر نفسه.. إن القصة التى يريد سماعها قصة غامضة مثيرة.. وهى قصة من بلد غريب.. ومن الطبيعى أن يتعلق كل هذا التعلق بانتظارها.. وكان قد أبلغ السفرجى بموعد حضورها إلى أن صحبها إليه فى غرفة المكتب ومعها صديقتها سميحة.

وكانت سميحة يبدو عليها أنها زهقانة من هذه المهمة المكلفة بها.. فلم ترض أن تجلس معها أو تنتظر أكواب الشاى التى كان يأمر السفرجى باعدادها.. وقالت لنوف بعد أن حيته بكلمات سريعة :

- سأعود إليك فى الخامسة كما اتفقنا.

وتعلقت بالسفرجى وسارت وراءه حتى باب الخروج من البيت.

وجلس بجانب نوف وبين شفتيه ابتسامة فرحة بها.. وهى بجانبه تجلس صامتة وعيناها مرخيتان فى خفر ووجنتاها تلمعان بحمرة الخجل.. وأنفاسها لها رنة كرنة التحريض.. وكأنها لم تأت لعمل.. لم تأت لتحكى حكاية.. إنما هى امرأة جاءت لرجل.. وفى انتظار أن يبدأ الرجل بما يريده من المرأة.. لقد جاءت إليه مستسلمة.. حتى أوحت إلى خياله بصورة الفراش الذى كان فى الغرفة التى خصصها للقائهما فى الفندق.. ولكنه يجب أن يقاوم.. أنه لا يريد منها شيئا.. ولن يحرضها على شىء مهما استسلمت.. وعيناه تطوفان فوق وجهها وشعرها الغزير الذى تلفه فوق رأسها كالتاج المحلى.. إنها حريصة على أن تستجيب لنصيحته ولا تتحلى بكثير من حلى الماس.. ولكن شعرها لا يخلو من حلية.. من الماس

أيضـا.. وثوبهـا لا يزال من الثياب المستوردة الغالية فى أبهتها.. ولكنها لا تصلح للمناسبة التى ارتدتها فيها.. مناسبة زيارته.. أنه ثوب يصلح لحفل ساهر فخم.. لعل هذه هى عادتها فهو دائما يراها فى مثل هذا الثوب ولعله يجب أن يلقى عليها درسا فى التوفيق بين اختيار ثوبها والمناسبة التى تظهر به فيها كما ألقى عليها درساً فى أصول التحلى بالمجوهرات الماسية.. ولكن ليس الآن.. لعله لن يراها بعد هذه المرة.

وقال من خلال ابتسامته التى يلفها بها :

- لقد وعدتنى أن تبدئى قصتك من أولها.

ورفعت إليه عينيها كأنها تلومه ثم عادت وأرختهما كأنها لا تطيق الكذب حتى لو كانت هى التى تكذب وقالت فى لهجة هادئة :

- قلت لك أنها ليست قصتى، إنها قصة صديقتى ودود.

وقال كأنه يعتذر :

- لنبدأ قصة صديقتك من أولها.

واعتدلت فى جلستها كأنها تهم أن تحكى حكاية طويلة وسرحت عيناها كأنها تنظر بهما إلى بعيد وقالت وقد اختفت ابتسامتها كأنها بدأت تعانى :

- إنها من أكبر عائلة فى بلدنا.

وقاطعها كأنه يحاول أن يخفف عنها ويوجهها فى حديثها :

- من عائلات البترول؟!

ونظرت إليه فى غضب وقالت محتدة :

- لا.. إنها عائلة كبيرة من قبل أن تظهر فى أرضنا قطرة بترول واحدة.. انكم تتصوروننا وكأننا لم نكن شيئا قبل البترول.. لا.. اننا نتباهى بأصلنا وبتاريخنا البعيد من قبل أن

يزيد الله من سخائه علينا ويهبنا البترول.. وعندنا نفرق بين مكانة العائلات وقيمتها بتقدير أصلها.. عائلات ما قبل البترول وعائلات ما بعد البترول.. ونحن ننتمى - أقصد عائلة صديقتى - إلى عصر ما قبل البترول.. عائلة أصيلة.

وقال وكأنه يتوسل إليها بابتسامته ألا تغضب ومد يده ووضعها فوق يدها ليؤكد اعتذاره :

- آسف.. لم أقصد شيئا.. إنى فقط أحاول أن أستكمل معلوماتى.

وتركت يدها تحت يده دون أن تسحبها.. والتقطت أنفاسها فترة كأنها تبعد نفسها عن غضبتها ثم عادت تقول :

- إن القصة نسمع بها على أنها تبدأ منذ عام الطاعون.. ولا أعرف تاريخ هذا العام.. إننا لا نؤرخ بأرقام السنوات سواء السنوات الهجرية أو الميلادية ولكننا نؤرخ بالأحداث.. حتى الأطفال كنا نؤرخ ميلادهم بتاريخ الحدث.. وكان الحدث فى ذلك الوقت هو انتشار وباء الطاعون الذى كان يحاصر الناس بالمئات دون أن يجدوا ما يقاومونه به إلا الخروج مع آذان الفجر فى زرافات يدعون الله أن ينجيهم ويحفظ لهم أرواحهم.. ولذلك سمى بعام الطاعون.. وكان جدى.. أقصد جد صديقتى.. طواشا يتميز بذكائه وقوة شخصيته وسطوته فاستطاع أن ينقذ نفسه وينقذ العائلة كلها من خلال عام الطاعون.. و..

وتنحنح مقاطعا وقال :

- ما هو الطواش؟

وقالت دون أن تنظر إليه وإن كانت قد سحبت يدها من تحت يده كأن مقاطعته نبهتها لاسترداد شىء كانت قد نسيته:

- الطواش هو تاجر اللؤلؤ.. ولا شك أن الجد كان يتاجر فى

غدا سألقاك.. إننى متأكدة أنى أستطيع لقاءك غدا.. أعددت كل شىء.. وسألقاك فى مكتبك.. الساعة الثالثة بعد الظهر.

وقبل أن يرد عليها كانت قد انتهت المحادثة والقت بسماعة التليفون فى وجهه.

لاشك أنها راعت رجاءه فى ألا يكون اللقاء فى الفندق ولذلك حرصت على أن تلقاه فى مكتبه.. ولكن لماذا تختار دائما موعد الساعة الثالثة بعد الظهر؟ إنه تعود أن ينام فى هذا الموعد.. تعود إذا أكل وأشبع بطنه أن ينام مباشرة بعد الأكل.. لذلك ينام مباشرة بعد تناول الطعام ساعة الغداء.. ولا يتناول افطارا مكتفيا بفنجان شاى حتى لا يتعب بطنه وينام.. ولا يتناول طعام العشاء إلا قبل النوم حتى لو كان خارج البيت.. فهو يقبل الدعوة ولا يأكل.. حتى لا ينام.. وإذا كان قد استسلم لموعدها فى الساعة الثالثة بعد الظهر فمعنى هذا أنه لن يتناول قبلها طعام الغداء.. لا يهم.. أنه فى حالة عمل ويجب أن يتحمل حتى لو تحمل الجوع.

وقضى يومه متفرغا لعمله.. يكتب.. ولكنه كان يجد نفسه بين حين وآخر يتوقف عن العمل وينطلق وراءها.. وراء نوف.. يحاول أن يكمل بخياله القصة التى بدأتها معه.. ثم يطوف بخياله بملامحها كأنه يستعرض لوحة أثارت أعجابه.. عيناها السوداوان الواسعتان.. وأنفها الطويل قليلا ويشرف على شفتيها المكتنزتين اللتين تضجان بشبابها.. وشعرها الأسود الغزير الذى تعقصه كتاج تتباهى به فوق رأسها.... ثم يعود يقاوم خياله لينصرف إلى عمله.

وفى اليوم التالى كان خياله أكثر استسلاما لها.. لم يستطع احساسه بعمله أن يأخذه بعيدا عنها.. وبقى فى انتظارها دون

أن يتناول طعام الغداء.. وكان يثور هنيهات على استسلامه لهذا الانتظار ولكنه كان يعذر نفسه.. إن القصة التى يريد سماعها قصة غامضة مثيرة.. وهى قصة من بلد غريب.. ومن الطبيعى أن يتعلق كل هذا التعلق بانتظارها.. وكان قد أبلغ السفرجى بموعد حضورها إلى أن صحبها إليه فى غرفة المكتب ومعها صديقتها سميحة.

وكانت سميحة يبدو عليها أنها زهقانة من هذه المهمة المكلفة بها.. فلم ترض أن تجلس معها أو تنتظر أكواب الشاى التى كان يأمر السفرجى باعدادها.. وقالت لنوف بعد أن حيته بكلمات سريعة :

ـ سأعود إليك فى الخامسة كما اتفقنا.

وتعلقت بالسفرجى وسارت وراءه حتى باب الخروج من البيت.

وجلس بجانب نوف وبين شفتيه ابتسامة فرحة بها.. وهى بجانبه تجلس صامتة وعيناها مرخيتان فى خفر ووجنتاها تلمعان بحمرة الخجل.. وأنفاسها لها رنة كرنة التحريض.. وكأنها لم تأت لعمل.. لم تأت لتحكى حكاية.. إنما هى امرأة جاءت لرجل.. وفى انتظار أن يبدأ الرجل بما يريده من المرأة.. لقد جاءت إليه مستسلمة.. حتى أوحت إلى خياله بصورة الفراش الذى كان فى الغرفة التى خصصها للقائهما فى الفندق.. ولكنه يجب أن يقاوم.. أنه لا يريد منها شيئا.. ولن يعرضها على شىء مهما استسلمت.. وعيناه تطوفان فوق وجهها وشعرها الغزير الذى تلفه فوق رأسها كالتاج المحلى.. إنها حريصة على أن تستجيب لنصيحته ولا تتحلى بكثير من حلى الماس.. ولكن شعرها لا يخلو من حلية.. من الماس

أيضا.. وثوبها لا يزال من الثياب المستوردة الغالية فى أبهتها.. ولكنها لا تصلح للمناسبة التى ارتدتها فيها.. مناسبة زيارته.. أنه ثوب يصلح لحفل ساهر فخم.. لعل هذه هى عادتها فهو دائما يراها فى مثل هذا الثوب ولعله يجب أن يلقى عليها درسا فى التوفيق بين اختيار ثوبها والمناسبة التى تظهر به فيها كما ألقى عليها درساً فى أصول التحلى بالمجوهرات الماسية.. ولكن ليس الآن.. لعله لن يراها بعد هذه المرة.

وقال من خلال ابتسامته التى يلفها بها :

ـ لقد وعدتنى أن تبدئى قصتك من أولها.

ورفعت إليه عينيها كأنها تلومه ثم عادت وأرختهما كأنها لا تطيق الكذب حتى لو كانت هى التى تكذب وقالت فى لهجة هادئة :

ـ قلت لك أنها ليست قصتى، إنها قصة صديقتى ودود.

وقال كأنه يعتذر :

ـ لنبدأ قصة صديقتك من أولها.

واعتدلت فى جلستها كأنها تهم أن تحكى حكاية طويلة وسرحت عيناها كأنها تنظر بهما إلى بعيد وقالت وقد اختفت ابتسامتها كأنها بدأت تعانى :

ـ إنها من أكبر عائلة فى بلدنا.

وقاطعها كأنه يحاول أن يخفف عنها ويوجهها فى حديثها :

ـ من عائلات البترول؟!

ونظرت إليه فى غضب وقالت محتدة :

ـ لا.. إنها عائلة كبيرة من قبل أن تظهر فى أرضنا قطرة بترول واحدة.. انكم تتصوروننا وكأننا لم نكن شيئا قبل البترول.. لا.. اننا نتباهى بأصلنا وبتاريخنا البعيد من قبل أن

يريد الله من سخائه علينا ويهبنا البترول.. وعندنا نفرق بين مكانة العائلات وقيمتها بتقدير أصلها.. عائلات ما قبل البترول وعائلات ما بعد البترول.. ونحن ننتمى ـ أقصد عائلة صديقتى ـ إلى عصر ما قبل البترول.. عائلة أصيلة.

وقال وكأنه يتوسل إليها بابتسامته ألا تغضب ومد يده ووضعها فوق يدها ليؤكد اعتذاره :

ـ آسف.. لم أقصد شيئا.. إنى فقط أحاول أن أستكمل معلوماتى.

وتركت يدها تحت يده دون أن تسحبها.. والتقطت أنفاسها فترة كأنها تبعد نفسها عن غضبتها ثم عادت تقول :

ـ إن القصة نسمع بها على أنها تبدأ منذ عام الطاعون.. ولا أعرف تاريخ هذا العام.. إننا لا نؤرخ بأرقام السنوات سواء السنوات الهجرية أو الميلادية ولكننا نؤرخ بالأحداث.. حتى الأطفال كنا نؤرخ ميلادهم بتاريخ الحدث.. وكان الحدث فى ذلك الوقت هو انتشار وباء الطاعون الذى كان يحاصر الناس بالمئات دون أن يجدوا ما يقاومونه به إلا الخروج مع آذان الفجر فى زرافات يدعون الله أن ينجيهم ويحفظ لهم أرواحهم.. ولذلك سمى بعام الطاعون.. وكان جدى.. أقصد جد صديقتى.. طواشا يتميز بذكائه وقوة شخصيته وسطوته فاستطاع أن ينقذ نفسه وينقذ العائلة كلها من خلال عام الطاعون.. و..

وتنحنح مقاطعا وقال :

ـ ما هو الطواش؟

وقالت دون أن تنظر إليه وإن كانت قد سحبت يدها من تحت يده كأن مقاطعته نبهتها لاسترداد شىء كانت قد نسيته:

ـ الطواش هو تاجر اللؤلؤ.. ولا شك أن الجد كان يتاجر فى

اللؤلؤ منذ بدء الحياة ولكنه بعد عام الطاعون أصبح أكبر طواش فى العالم كله.. على الأقل فى عالمنا.. وأصبح عشرات من الذين يعيشون عالم اللؤلؤ يدينون له بالطاعة ويأتمرون بأمره.. وهو صاحب مركب صيد اللؤلؤ وقائدها.. حتى «الغيص» وهو الرجل الذى يغوص إلى القاع بحثا عن اللؤلؤ كانوا فى مجموعهم يخضعون لعبد الله الطواش ـ أى الجد ـ أكثر مما يخضعون لأى صاحب مركب.. وكان هو الذى يحدد لهم رحلاتهم ويأمرهم بالخروج إلى البحر ويغيبون شهورا ثم يعودون، ويقدم كل من يعود منهم كل ما جاء به من اللؤلؤ إلى عبد الله الطواش الذى يتولى بيعه.. وكان سوق بيع اللؤلؤ فى الهند.. ولعل الجد كان فى صغره يسافر إلى الهند حاملا ما يحصل عليه من اللؤلؤ ليبيعه هناك.. ولكنه بعد عام الطاعون وبعد أن سيطر على كل تجارة اللؤلؤ أصبح من الملايين التى جمعها ومع أصله المرموق أصبح هو رجل القبيلة وسيدها.. وأصبح آمرا ناهيا بل قيل عنه : إنه كان مستبدا لا يرحم من يتحداه كريما لا يبخل على من يعيش فى مملكته.. ولم يعد يسافر إلى سوق الهند بل أصبح تجار الهند هم الذين يجيئون إليه كأنهم يستجدون منه اللؤلؤ.. وهو الذى يفرض عليهم الثمن.. وقد أقام فى فناء البيت.. وهو ليس فناء محددا فكل الأرض حتى منتهى النظر هى أرضه.. أقام هذا المبنى الطويل العريض الذى سبق أن حدثتك عنه ليستقبل فيه من يفد إليه سواء من أهل البيت أو من رجال وشخصيات البلد.. كان عالمه كله تحت أمره.. وعبد الله الطواش هو الاسم الذى يهز الناحية كلها.. اسم السيد المطاع.

ولم يكن لعبد الله الطواش حدود إلا إذا وقف أمام زوجته..

جدة صديقتى ودود وأم أبيها عدوان.. دعنى أحدثك عنها.. فهى رأس القصة كلها.

وسكتت نوف برهة دون أن تنظر إليه وهى تبتلع ريقها كأنها تبتلع لقمة قبل أن تبدأ لقمة أخرى، ومدت يدها والتقطت فنجان الشاى رغم أنه برد ورشفت رشفة، وهو ساكت بجانبها لا يقول كلمة.. إنه متقمص شخصية الطبيب النفسى وأكثر ما يعتمد عليه هذا الطبيب هو القدرة على الاستماع مهما طال دون أن يقول كلمة.. إن أى كلمة قد تخرج المريض من حالة الاستسلام لخواطره.

إلى أن قالت نوف :

ـ كانت زوجته من عائلة أرقى وأكثر ثراء وجاها منه ومن عائلته.. وكانت تنتمى إلى قبيلة هى من أرقى القبائل العربية، ولا شك أن أهلها زوجوها إلى عبدالله الطواش بعد أن وصل إلى منتهى عزه ومجده.. ورغم ذلك فقد جاءته كزوجة وهى معتزة بأصلها وترفض غاضبة أن تنسب إليه أو إلى عائلته إذا نسبها أحد إلى غير اسم عائلتها.. وكانوا يحكون لنا منذ كنا صغارا حكايات عن هذا الزواج.. عن قيمة المهر الذى دفع ذهبا وحملته عشرة أكياس كبار.. وعن صندوق كبير مصنوع من الخشب المطعم بالعاج زف مع العروس.. كان يحوى ما لا يصدقه عقل من مجوهرات وحلى الماس والذهب واللؤلؤ.. والحرائر المشغولة بالذهب.. وقفاطين محلاة ومطرزة بالذهب.. كانت عندما تبدو بقفطان منها يذهل الناس من حولها ويفغرون أفواههم دهشة وذهولا أمام الروعة وتغلى نفوس النساء من حولها حسدا وغيرة.

وهى نفسها كانت جميلة صغيرة.. وكانت متعلمة رغم ندرة

تعليم النساء على أيامها.. وكان علمها يوحى إليها بأنها تعرف كل شىء وقادرة على كل شىء.. وكانت تقضى الساعات وهى تقلب فى محطات الراديو لتسمع وتعرف.. ولكن كان أقوى ما فيها هو اعتزازها بنفسها إلى حد أن عرف عنها أنها جبارة مغرورة.. تأخذ حقها دون أن تطلبه.. ممن تطلب؟.. إن كل الناس أقل منها وهى لا يمكن أن تهين نفسها بأن تطلب ممن هو أقل منها.. حتى الاجراءات التى يفرضها قانون التعامل مع الدولة كانت تترفع عنها.. فإذا أرادت أن تبنى بيتا مثلا.. وقد بنت الكثير.. فهى لا تسعى إلى الحصول على رخصة من البلدية كما هو متبع.. إنما تبنى.. أنه حقها والأرض أرضها.. والبلدية تعرف وتسكت.. إنها لا تستطيع شيئا أمام هيبتها ومكانتها وأصلها الذى تنتسب إليه.. بل وصلت هيبتها إلى حد أن أهل البلد عرفوا موعد نومها ساعة الظهيرة.. وفى هذه الساعة لا يمكن أن تمر سيارة قريبا من البيت أو يمر بائع جوال ينادى على بضاعته حتى لا تقلق فى نومها.

ومع جبروتها وغرورها كان لها جانب آخر من شخصيتها.. جانب فى منتهى الرأفة ومنتهى الكرم.. كانت جبارة مع الأقوياء الذين هم فى غنى عنها وكانت رئيفة كريمة مع الفقراء الذين يحتاجون إليها.. وقد أقامت بجانب البيت الكبير.. بيت العائلة.. مبنى كبيرا آخر خصصته كمأوى تأوى فيه اللاجئين إليها من العجزة والمعلولين وأصحاب الحاجة.. وكان بعضهم يبقى فى هذا المأوى سنوات إلى أن يموت.. وكانت توزع رواتب شهرية دائمة على كثير من العائلات الفقيرة المحتاجة.. كانت تشفق على المحتاجين بنية صادقة لا تريد من ورائهم شيئا وكانت تقسو على الجبابرة أو المتباهين بقوتهم قسوة

عارمة ولا تخاف مهما قست.. وربما كان هذا هو ما جعل لها كل هذه الهيبة بين الضعفاء والأقوياء.

وربما كان الضعف الوحيد فى الجدة هو حبها لأبنائها السبع.. لقد أرضعتهم غرورها بأصلها وجبروتها وعنادها.. وكانت تتركهم يعيشون كل هذا الغرور والجبروت دون أن تحاسبهم إلا إذا حاول أحدهم أن يتحدى جبروتها بجبروته فكانت تستطيع دائما أن تخسف به.. ما عدا ابنها الأكبر.. عدوان.. كانت تستسلم له وتضعف أمامه مهما تجبر.

وكان زوجها عبدالله الطواش يتركها حرة مع شخصيتها وهو فخور بها لأنها ابنة هذه القبيلة سيدة القبائل.. مطمئن إليها ويفرغ فى يديها الملايين لتحقيق كل ما تريد.. ولا يحاسبها.. بل لا يهمه ما تعطى للفقراء أو ما تتحدى به الأقوياء.. وهى أيضا ليس لها ما تحاسبه عليه.. فهو لا يطلعها على تفاصيل عمله.. بل لا تعرف كم يكسب ولا كيف يكسب؟ يكفيها أن تطلب فيلبى طلبها.. كأن كل منهما يعيش فى عالم لا يدخله الآخر.

إلى أن مات عبدالله الطواش.

مات فجأة.. وإن كان قد وصل من العمر ما لا يلام عليه الموت.. لقد كان أكبر منها بكثير وتركها وهى لا تزال فتية.. قوية.. لا تزال على جمالها.. وتركها بشخصيتها الجبارة القاسية التى تستطيع بها أن تقارع بلدا بأكمله.. وترك لها ملايين لا يتسع الخيال لتعدادها.. وكان أول قرار اتخذته.. لا توزيع للإرث.. إن عبدالله الطواش لم يمت مادامت هى على قيد الحياة، وستبقى هى مسئولة عن رعاية العائلة كما كان هو مسئولا، وقد أذعن الأبناء لها.. واستمروا يعيشون معها كما

كـانوا يعـيشـون مع أبيـهم.. لا يعلمـون كم ولا مـاذا يملكون ولكنهم يطلبون دون أن يخيبوا فيـما يطلبون، وإن كانت ابنتها الكبرى قـد تحدتها بتحـريض زوجها وطالبتـها بنصيبـها فى الإرث إلى حـد أن تقدمت بطلبـها إلى المـحاكم.. ووقـفت الأم بجبروتها فى وجهها.. إن المحاكم لا تستطيع أن تحكم عليها.. إن هيـبتـها أقـوى من القضـاء.. ولكنهـا طردت هذه الابنة من رضائهـا.. لم تعد تبـيح لها أن تأتى لزيـارتها وتجلس إليـها.. ومـضت أربعون عـاما وهى لا تراها وتـرسل إليهـا من بعيـد ما يمكن أن ترسله لهـا من أموال.. دون أن تتركـها تحاسبـها على ارثهـا.. وبعد أربعين عـاما كـانت الأم قد مـاتت.. وجاءت الابنة الكبرى إلى البـيت بعد هذا العمـر لا لتشتـرك فى العزاء ولكن لتسأل عن نصيبها فى الميراث.

والقرار الثانى العاجل الذى اتخـذته الجدة هو أن يحل ابنها الأكبر عدوان محل أبيه فى تجارته ومـسئوليته عن القبيلة.. أن يصـبح على رأس البلد عدوان الطواش بعـد عبـدالله الطواش.. وذلك رغم أن عـدوان لم يكن قد تعـدى السادسـة عشـرة من عمره.

ولعل عدوان كان ينتظر موت أبيه ويعـد نفسه ليحل محله.. فمنذ اليـوم الأول وهو يجلس مكانه فى المبنى الواسع الكبـير ومن حوله شخصيات البلد أصـحاب وقادة مراكب صيد اللؤلؤ ورجال الغيص الذين يغطسون فى البـحر لصيد اللؤلؤ.. ورغم غرور عدوان وعناده اللذين ورثهـما عن أمه إلا أنه لم يكن لديه ذكـاء أبيه وخـبرته بمـهنته وقـوة سـيطرته الواعيـة على من حوله.. ولذلك ضاعت شخصيته بين أهله منذ الأيام الأولى وإن كانوا قـد استـمروا فى الالتـفاف حوله لأنه علـى الأقل أصبح المالك لكل هذه الملايين.

ولم ينقض شهـر على الوفاة حتى أعلن عدوان أنه مـسافر إلى الهند بحجة التعـرف على سوق اللؤلؤ هناك.. وسافر لأول مـرة.. ولم يغب شهـرا ولا شهـرين ولكنه غـاب عامـا كامـلا واكثر.. وكانت أخبـاره تفد الينا بأنه يعيش هناك فى بذخ كأنه مهـراجا من مهـارجة الهند.. وأنه اشتـرى خيولا وبدأ يربيـها هناك ويشترك بها فى السباق مـتحديا سطوة أصحاب الخيول الهنود.. وكان مـا نسمـعه يثيـر الخيال إلى مـا يمكن أن تكون عليه ليـاليه هناك.. ثم عاد لمـجرد أنه قرر أن يعود.. وقـد عاد وهو يحـمل هدايا غاليـة ومعـه سيارة رولزرويـس كانت أول ما يدخل مثيلتها فى البلدة وفى أيام كانت السيارة لا تغنى عن الجمـال.. أى كان الأهالى يتفـاخرون بملكيـة الجمال أكـثر من تفاخرهم بملكية السيارات.

ولم يسـأله أحد عما حققـه فى الهند خاصا بتجارته.. تجارة اللؤلؤ.. لم يسـأله أحد كم أنفق وكم كسب من البيع؟ ربما كانت امه تعرف فـقد كان وهو هناك يرسل إليها طالبـا أن تبعث إليه بالمال.

وكانت تعرف ولا تتكلم فقد كان أيام زوجها عبدالله الطواش لا يجرؤ أحد على سؤاله ولا على محاسبته.. ويجب أن تحتفظ لابنها بهذا التقلـيد..حتى أخوته ليس من حقهم محـاسبته رغم انهم شـرعا مـشتركـون معـه فى الإرث.. إن عبـدالله الطواش لم يورث بعد مادامت زوجته على قيد الحياة.. ولكن أم عدوان تصـورت أن الطريق لتسـتكمل شـخصـية ابنهـا وتضعـه فى الطريق السليم هو أن تزوجه، وقـد اختارت له فتـاة من جانب فقـير من القـبيلة كـانت جمـيلة ولكنهـا جاهلة غـبية.. وربـما اختـارتها الأم حتى تريحـها وتريح زوجـها بدلاً من أن تكون

فتاة متنورة لها شخصية تتعبها وتتعب زوجها.. وقد كانت فعلا فتاة مريحة.. تحملت كل هذه الحياة الغريبة دون أن تتكلم حتى اليوم كلمة واحدة.

ولم يمانع عدوان فى الزواج.. إنه لا يمانع فى أن يكون له إناء لطبخ العيال الذين ينجبهم.. تم الزواج فى نفس أسبوع وصوله وبعد أربعة أيام من زواجه عاد وسافر إلى الهند.

وغاب هذه المرة أكثر من عام وقد بدأ يتبع طريقا جديدا فى طلب الأموال التى تبعث بها أمه إليه.. كان يرسل خطابا مكتوبا باللغة الانجليزية إلى ابن عمه نايف.. لعله الوحيد الذى يطمئن إليه.. ويأخذ نايف الخطاب ويقرؤه لأمه وقد حدد فيه ما يريده.. والأم تستجيب لكل ما يريد.. إن كل شخصيتها تضيع أمامه.. وربما كان يتبع هذه الطريقة فى ارسال الخطابات حتى لا يكشف أحد سره ولا يعرف أحد بإسرافه وبذخه إلا أمه وابن عمه.

وقد عاش كل حياته بهذه الطبيعة المحيرة.. يسافر إلى الخارج ليقضى أعواما ويعود إلى بلده ليبقى أياما يبذر فيها بذور الانجاب فى بطن زوجته.. ثم يعود ويختفى.. ولم يعد يسافر إلى الهند وحدها.. بدأنا نسمع أنه سافر إلى لندن.. أو سافر إلى لبنان.. أو سافر إلى مصر.. ونسمع أنه تزوج فى كل بلد أقام فيها.. وكانت آخر زوجة سمعنا بها زوجة مصرية.

ورغم أن كل العائلة وكل أفراد القبيلة استسلموا لطبيعته ولم يعودوا يبالون بها.. حتى أبناؤه.. وحتى أمه رغم ما يسببه لها من كمد وحسرة.. إلا أن ابنته ودود كانت الوحيدة التى لا تستطيع أن تسكت ولا أن تنساه.. كأنها غارقة فى حبه.. ولا يزال أبوها يسيطر على خيالها بقامته الطويلة الرقيعة..

وعيناه اللتان تشدانك إليهما.. والشعيرات القصيرة التى تلف ذقنه.. وتسعى وراء سماع أخباره من كل من تعلم أنه لاقاه فى بلد من البلاد.. ثم بعد أن كبرت تجرأت وكتبت له خطابا وارسلته إلى بلد علمت أنه فيه.. إنها جرأة أن تكتب الابنة خطابا إلى أبيها.. ولكن ودود كانت جريئة.. ولم تتلق ردا.. كتبت له خطابا ثانيا وثالثا ولا رد.. ولا رد.. وتحاول أن تجلس إليه عندما يصل إلى البلد بعد عام أو عدة أعوام من غيبته.. ولكنها لا تنال منه سوى ابتسامة ثم يتركها كأنه لا يعترف بوجودها أو لا يحس بها كأبنة.

●●●

وسكتت نوف وهى تتنهد تنهيدة عميقة كأنها تعبت من طول ما حكت.. ومدت يدها تمسح على جبينها كأنها تنيم خيالها حتى تهدأ.. وقال لها رغم أنه مقتنع بأنها تعبت وكأن شهوته إلى استكمال الحكاية أقوى من أن تتركه يرحمها.

- وهل لا يزال طواشا.. ماذا حدث لتجارة اللؤلؤ؟

وقالت فى حدة وهى تنظر إليه بعينين كأنهما غاضبتان :

انتهت .. ضاعت .. لم تعد العائلة تنسب إلى اللولؤ.

ثم خفت صوتها وهدأت غضبتها وقالت كأنها تواسى نفسها :

- لعل تجارة اللؤلؤ كلها لم يعد لها ما كانت عليه من قبل بعد أن ابتكرت اليابان وسيلة لتربية القواقع لتلد لها اللؤلؤ إنه لؤلؤ حر ليس مصنوعا ولكنه ليس فى قيمة لؤلؤ زمان لأنه لم يعد يولد بقدرة الله ولكن بشطارة البشر.. وهو ما حدث بعد ذلك للإنسان.. فإن الإنسان يمكن أن يولد الآن بما يسمى التلقيح الصناعى.. أى لم تعد المرأة الآن فى حاجة إلى رجل

يتزوجـها حتى تلد.. كـما لم يعـد اللؤلؤ فى حاجة إلى صـياد حتى يصل إلى تزيين عنق المرأة.

وقال وهو لا يريد أن يريحها :

ـ وكيف يعيش عـدوان دون تجارة اللؤلؤ.. من أين يحصل على المال؟

وقالت وهى تبتسم وكأنها ابتسامة ساخرة:

ـ إنه صديق لكثير من الشخـصيات من سادة البلد.. وقيل: إنه يعمل مـستشـارا معهم، بل قيـل : إنه أصبح وزيرا.. ولكنه دائما مغترب بعيـد ولا ندرى ماذا يفعل ولا كيف يعيش؟ ثم أن العائلة لا تزال تملك فإن ما تركه عبدالله الطواش كثير وزوجته كـانت من الذكاء بحـيث استطـاعت أن تنمى بعض ما تركـه.. تسـتطيع أن تقـول : إننا انتـقلنا من عـصر اللؤلـؤ إلى عصـر البتـرول.. ولكن كل ذلك لا عـلاقـة له بالقـصـة التى أريد أن أحكيها.. إن كل ما يهمنى هى قصة صديقتى ودود.

وقال مـبتـسمـا كأنه يحـاول أن يحرضـها على مـزيد من الكلام:

ـ ألم تحـاولى.. أقصـد ألم تحاول ودود.. أن تقـاوم حبـها لأبيها.. أن تهـرب بخيالها من انتظار الوصـول إليه.. أن تشغل نفسها بما يبعدها عنه وتنساه كما نسيه أخواتها.

وارتخت نوف فى جلستها وسرحت بعـينيها بعيدا ثم علت شفتيها ابتسامة كأنها ابتسامة ساخرة.. وقالت :

ـ إنهم يعـتـبرون المـرأة عندنا كـأنهـا تعـيش على هامش الرجل.. يصـفونهـا بأنهـا فراغ فى العـقل وامـتلاء اليـد.. أى تسـتطيع أن تنفق الأمـوال ولا تسـتطيع أن تفكر.. وهذا كـلام أوهام.. إنه رغم كل القيـود التى يفرضـونها على المرأة فـإنها

تستطيع أن تـصل بعقلها لا بأمـوالها إلى كل مـا تريد.. وربما كانت المرأة تعتمـد على طبيعة الرجل عندنا.. إنه رجل اتكالى.. يتكل على ما يفرضه عليه المجـتمع الذى يعيش فيه.. حتى أنه يحرم على المـرأة مثلا أن تدخن سيـجارة لا لأنه لا يريدها أن تدخن ولكن لأن المجتمع يفرض عليه ألا يسمح لها بالتدخين.. ثم يسـافر نفـس الرجل مع زوجتـه أو ابنتـه إلى أوربا وهناك يتركـهـا تدخن لأن المـجـتـمع فى أوربـا لا يمنع المـرأة من التدخين.. تمـاما كما تحرص المرأة على أن تخبـئ نفسها فى العباءة وهى فى شوارع بلدها وتتـحرر منها وهى فى شوارع أوربا دون أن يلومـها أحد من الـرجال.. وقد اسـتطاعت ودود فعـلا أن تهرب بخـيالهـا من الجرى وراء أبيهـا.. أو على الأقل حاولت.. ودخلت فى مـغامرة.. مـغامرة كـان لا يمكن أن تقدم عليـها إذا كانـت فارغة الـعقل ممـتلئـة اليد كـما يصفـون كل البنات..

إنها مـغامـرة صانهـا فيـها العـقل وبنات بلدنا يصلن إلى ما يردن ويحمين أنفسهن بذكائهن.. انهن يصلن إلى الكثير.

وسكتت وابتسامتها الساخرة لا تزال بين شفتيها.

وقال مستمرا فى تحريضها على الكلام :

ـ وماذا فعلت ودود لتهرب من أبيها؟

واعتدلت فى جلستها وقالت كأنها ترجوه :

ـ أنها قصة طويلة وقد تعبت.

وقال بلهجة الطبيب ومد يده ووضعها فوق يدها :

ـ ان تعبك هو ما سيريحك.. وسـيحل مشكلتك.. مجرد تعب الكلام

قالت وقد تركت يدها مستسلمة تحت يده :

ـ وتعب الاستماع.. لقد اتعبتك بالاستماع إلىّ.

وأحس بعينيها تنظران إليه فى استرخاء ورأسها يكاد يميل ليستريح فوق كتفه.. ثم ابتعدت بسرعة وقد عادت عيناها إلى الاسترخاء فى خفر.. وكأنه تنبه.. فرفع يده من فوق يدها كأنه يهرب من الوساوس التى تهم بأن تتحرك فى صدره.

وهم أن يقول شيئا كأنه يبحث عما يقوله عندما فوجىء بالسفرجى يدخل ويقدم صديقتها سميحة.

وقالت سميحة فى لهجة ضاحكة :

ـ الساعة الخامسة بالضبط.

ووقفت نوف ومدت له يدها قائلة :

ـ قد نلتقى غدا.

قال وهو محتفظ بيدها فى يده :

ـ كيف أعرف؟

وقالت ضاحكة :

ـ كالعادة.. سأتصل بك غدا صباحا بالتليفون.. هل أستطيع أن أقدم لك شيئا.. أى شىء.. وخشى أن تكون تعرض عليه أتعابا لاستقباله لها.. تدفع له.. وتحامل لطرد هذا الخاطر وقال ضاحكا :

ـ أى شىء؟

وقالت من خلال ابتسامتها فى تأكيد :

ـ أى شىء.

قال من خلال ضحكته وقد لانت نظراته :

ـ أريد أن أرى شعرك مفرودا على كتفيك.

قالت ضاحكة وهى تشد صديقتها وراءها :

ـ ستراه.

وصديقتها سميحة تنظر إليه فى ازدراء كأنها لا توافق على هذا الكلام.

٤

ودق جرس التليفون فى صباح اليوم التالى وسمع صوت نوف تقول ـ وهى تذوب توسلا حتى أنها لم تستطع أن تسيطر على كثير من كلماتها لهجتها المحلية التى لا يفهمها:

ـ أرجوك.. من أجل خاطرى.. لنلتق هنا.. فى الفندق.. الغرفة ٦١٢.. لقد حاولت المستحيل ليتركونى أخرج وحدى، ولكنهم يصرون على أن تصحبنى أختى وأولادى.

وقال وهو ساهم يحس بالعبء يقع عليه مرة ثانية :

ـ لتتفضل أختك معك.

وقالت تقاطعه بسرعة :

ـ إنى استطيع أن أعرض عليها.. وهى أيضا من قارئاتك ولا شك أنها تحب أن ترى الأستاذ الكبير.. وقد تشاركنى فى الاحتفاظ بزيارتنا سرا عن العائلة.. ولكنى معها لن أستطيع أن أتكلم.. إنها لا تشاركنى ما أحس به ولا تعرف شيئا عن مشكلتى.. أرجوك تعال أنت.. سأنتظرك فى الساعة الرابعة ولن تخيب أملى.

وقال كأنه يحادث نفسه وسماعة التليفون تلقى وتنتهى المحادثة كعادتها:

ـ سأحاول.

لماذا لا يذهب إليها؟ ولماذا يترك نفسه للخوف كأنه يرتكب فضيحة؟ إنه يقوم بعمله ككاتب يبحث عن قصة وكطبيب يعالج مرضاه.. لا يمكن أن يلام طبيب يختلى بمريضته سواء فى العيادة أو فى غرفة نومها.. رغم أن الأطباء كلهم ليسوا فوق مستوى الشبهات.. يجب أن يندفع وراء عمله كما كان أيام شبابه وقبل أن يصل إلى هذه القيمة من الشهرة التى أصبح يخافها بقدر ما يعتز بها.. يجب أن يعود مغامرا مهما كلفته المغامرات.

وذهب إليها..

وسار فى بهو الفندق وهو أكثر اطمئنانا عما كان عليه فى المرة الأولى.. ووضع نفسه فى المصعد إلى الدور السادس وهو يشد ظهره ويرفع من صدره وعلى وجهه ملامح جادة كأنه طبيب فى طريقه للكشف على مريضه.. كان يجب أن يحمل فى يده حقيبة صغيرة ليستكمل مظهر الطبيب.. لا يهم.. ولن ينسى فى المرة القادمة.

وفتحت له نوف الباب بنفسها وأغلقته وراءه بمجرد أن خطا.. ووقفت بجانبه تكاد تلتصق به دون أن تنطق بكلمة ولا كلمة ترحيب وقد أرخت جفونها فى خفر كأنها تعرض عليه نفسها فى بداية لقاء.

إنها تقدم إليه جديدا.

لقد اسدلت شعرها على كتفيها.. أنه شعر غزير كالشلال غامق السواد كالليل وطويل حتى يسقط إلى ما بعد كتفيها.. إنه يبدو كهالة تحيط بالقمر.. وأطال البحلقة فيها كأنه يشرب منها بعينيه.. ولكنها كانت تضع فوق شعرها.. «كلبس» مرصعا بفصوص الماس.. ودون أن يتعمد مد يده ورفع من

بين شعرها هذا «الكلبس» ومد يده وأمسك بيدها وفتحها ووضع فيها الكلبس وهو يقول :

- لا تتدخلى فيما أعطاك الله وتزيدين عليه.. وشكرا.. لقد أعطيتنى ما كانت أريد.

قالت وهى تجلس على المقعد ويجلس على المقعد الآخر بجانبها وهى تبتسم ابتسامة خفورة حلوة :

- ما رأيك بعد أن رأيتنى كما أردت.

قال وهو لا يزال يشربها بعينيه :

- رائعة.

قالت من خلال حيائها :

- إنك تجاملنى.. لعلك تجامل كل من تلتقى بهن من النساء.

قال مبتسما :

- إنى لا أجامل حتى لا أخسر سمعتى كرجل صريح فى منتهى الصراحة.. ثم أنى تعودت ألا تسألنى عن جمالها إلا المرأة الجميلة فعلا.. أنها تريد دائما إن تسمع كلمات التغزل فى هذا الجمال تباهيا به.. أما المرأة التى ليست جميلة فلا تسأل لأنها تخشى السؤال وليس لديها ما تتباهى به.

قالت وهى تفرك يديها بعضها ببعض :

- ثق أنى لا أحس بأنى جميلة.

قال وابتسامته تلفها :

- إنك جميلة.. شخصية فريدة من الجمال.

وقالت من خلال ابتسامة كأنها تسخر بها من نفسها :

- لعلها لأنها شخصية غريبة عنك فتحس بها.. إن الرجال الغرباء عنا يحسون بنا أكثر مما يحس رجالنا.. إن هؤلاء الغرباء كأنهم سواح تبهرهم المناظر الجديدة عليهم.. كرجال

بلدنا.. إنهم يبهرون بجمال الأجنبيات حتى لو كان جمالا عاديا اكثر مما يبهرون بجمال بنات بلدهم.. وهى مشكلة من مشاكلنا.

وقال وكأنه يخفف عنها :

ـ إن فى بلادكم وفى كل بلد من بلاد العالم من هى جميلة ومن هى أقل جمالا ومن هى قبيحة.. والغربة لا أثر لها على تقدير الجمال.. إن الجمال يفرض نفسه فى أى مكان من العالم.. حتى السواح يفرقون فى المشاهد التى يزورونها بين ما يبهرهم بالجمال وما يمرون عليه دون انبهار.

وسقطت عيناه فجأة على الفراش الملتصق بمقعديهما.. إنه لا يرتاح وهو بجانب فراش.. أنه كأنه يحضه على ما هو خارج عمله.. إنه يمتص كل عقله ولا يترك فيه إلا احساسه بأنه رجل وبجانبه امرأة وأمامهما فراش.. إنه حتى وهو فى هذا العمر لا يستطيع أن يقاوم طبيعته العادية.

وقال كأنه يستغيث :

ـ أين صديقتك سميحة؟

وقالت مبتسمة :

ـ خرجت.. لقد رأيت أن استقبلك وحدى حتى أغير من افتعالى وخضوعى لتقاليدنا.. ولكنها ستعود إلينا فى السادسة.

وابتلع ريقه كأنه يقاوم نفسه وقال كأنه يهرب منها :

ـ لنبدأ فى الحكاية.. لقد قلت لى : إن ودود بدأت فى مغامرة.. كيف غامرت؟

وقالت وهى تضحك ضحكة صغيرة :

ـ انتظر.. لقد اعددت لك القهوة التى أعرف ادمانك لها.

وهمت أن تقوم لتلتقط ترمس موضوعا بجانب الفراش وبجانبه فنجان قهوة ولكنها توقفت برهة وفتحت يدها التى تحمل «الكليبس» المرصع بالماس وقالت :

ـ هذا الدبوس يمسك بتسريحة شعرى.

وقال وكأنه ينهرها :

ـ ابحثى عن دبوس عادى ومن الأفضل أن يكون من لون شعرك حتى لا يظهر منه.. إن شعرك رائع جميل يكفى وحده ليبهر العينين فلا تضعى فيه شيئا ملفتا براقا يجذب العيون بعيدا عنه.. كأنك لا تثقين فى شعرك وكأنك تهينينه بعدم التباهى به وحده.. إن المرأة التى تبالغ فى تزيين شعرها هى المرأة التى لم يهبها الله شعرا يرضى من غرورها وتكتفى به وحده كأنها أقوى من أن تلجأ إلى أى مزيد.

وقالت مبتسمة :

ـ حاضر.. سمعا وطاعة.

وألقت بالدبوس الماس على جانب وخطت تصب له فنجان قهوة من الترمس قدمته له.. ثم جلست وقد أرخت ظهرها على المقعد ومدت أمامها ساقيها وبدأت عيناها تهيم إلى بعيد وقالت فى صوت خفيض كأنها تستعيد ذكرياتها بخيالها :

ـ لم تكن ودود تبحث عن مغامرة ولا يخطر على بالها أن تغامر بشىء.. كانت صغيرة لا تتجاوز الرابعة عشرة من عمرها.. ورغم كل ما كان يمزقها من حبها لأبيها وغيبته عنها فكان كل ما تتعمده هو البحث عن سماع أخباره وكتابة خطابات له ولا يرد عليها.. وفى يوم وضعت عباءتها وركبت السيارة مع أخوتها البنات وذهبن إلى سوق البلد.. إننا لا نذهب إلى السوق لأننا فى حاجة إلى شىء ولكن لمجرد

التسلية وتضييع الوقت الفارغ الطويل الممل.. ونزلن من السيارة أمام أحد المحال.. ورأت ودود سيارة جديدة واقفة لم تكن رأت مثلها من قبل، سيارة صغيرة سبور لها لون أحمر زاه.. وانبهرت بهذه السيارة ووقفت تملأ عينيها منها حتى تركت أخواتها يسبقنها إلى داخل المحل.. ثم إذا بباب السيارة يفتح ويخرج منه شاب يرتدى ثياب طيار.. وفوجئت به وجرت بسرعة لتلحق بأخواتها داخل المحل.. وإذا به يلحق بها ويدخل وراءها ويقف قريبا منها.. وتجرأت ونظرت إليه.. إنه وسيم رشيق وبدلة الطيار تحيطه بهالة كأنها ديكور رائع لتمثال جميل.. وهو طيار رسمى.. أى من قوات الجيش.. وكانت هواية الطيران بالنسبة لشبابنا لا تزال جديدة عليهم ويتفاخرون بأن يكونوا طيارين ويتباهون بلباس الطيران.. وبالنسبة للبنات بدأن يحلمن بالطيارين ويذبن اعجابا بهم.. وكانت ناحيتنا معروفة بأنها مركز تجمع قوى الطيران.. ولكن الطيارون كانوا من قبل كلهم من الغرباء والآن أصبح بينهم طيارون من أهلنا.. من شبابنا.. وأحست ودود بأن اعجابها بالسيارة قد أصبح بصاحبها.. اعجابا يسرى فى كل أعصابها.. ولكنه اعجاب كمجرد خيال.. كأعجابها ببطل من أبطال الأفلام السينمائية التى تعودوا على عرضها فى البيت.. ماذا تعرف عن هذا الطيار وكيف تعرف عنه؟ أنه مجرد صورة خيالية مرت بها.. وانتبهت إلى أنه يبحلق فيها بعينيه فادارت عينيها عنه سريعا وانشغلت بتقليب المعروضات بين يديها وهى لا تكاد ترى منها شيئا.. وتتنقل فى أرجاء المحل وهو يتنقل وراءها وعيناه لا تكفان عنها وتلتقى بهما كلما أدارت رأسها فى لمحة.

وقال يقاطعها :

ـ ألم تكن ودود تخبىء نفسها داخل العباءة فكيف بهرته إلى هذا الحد؟

وقالت ضاحكة :

ـ إن العباءة لا تخفى وجوهنا.. إننا نضع فوق الوجه حجابا خفيفا من حرير فى رقة الهواء لا يخفى منه شيئا بل إنى تعودت ألا أضع هذا الحجاب وتعودت أن أخفى وجهى بطرف العباءة تغطية للمظهر الذى تفرضه التقاليد.. واكشف منه كلما أردت أن يرانى أحد.. يرى وجهى كله حتى لا يتوه عنى.. وقد قلت لك إننا لا نحترم هذه العباءة إلا احتراما لتقاليد بلدنا ولا نكاد نجتاز الحدود حتى ونحن فى داخل الطائرة حتى نخلعها عنا لنتمتع بالظهور بالفستان المختفى تحت العباءة.. ورجالنا كلهم لا يمانعون فى أن نخلع العباءة مادمنا قد أصبحنا خارج الحدود.

قال مقاطعا فى لهفة :

ـ المهم.. ماذا حدث؟

وقالت فى هدوء الهائمة فى ذكرياتها :

ـ المهم أنه ظل يتتبعها إلى أن خرجت من المحل وركبت السيارة وسارت بها وإذا به يتتبعها بسيارته وهى تلمحه من بعيد دون أن يتنبه أخواتها إلى شىء أو يلمحن شيئا.. وهى مذهولة.. لعله يريد أن يعرف أين تقيم؟ ولكن ماذا بعد أن يعرف؟ وقد وصلت السيارة إلى البيت ودخلت بهن ونزلت من السيارة هارعة وأطلت من النافذة.. أنه وقف بسيارته قريبا من مدخل البيت ثم نزل منها واقترب من الحارس الواقف عند الباب.. إنه يريد أن يلتقى بأخى.. والحارس يؤكد له أن أخى ليس فى البيت.. ولكنه يريد أن يدخل وارتفع صوته وتشاجر

مع الحارس ثم اضطر أن يعـود إلى سيارته ويقودها مبـتعدا.. هل يعـرف أخي.. أقصـد أخـا صديـقتي ودود.. إن أخـاها لم يسبق أن حـدثهم عن صديق له طيار وإن كـان ليس من عادته أن يتحدث عن أصـدقائه أو عن حياته الخاصـة خارج العائلة.. ولكن ماذا سيفعل هذا الطيار؟ لا يمكن أن ييـأس بعد أن تتبعها كل هذه الفتـرة.. ثم أنه طيار ولاشك أن الطيار من طبيـعته ألا ييأس من الوصول إلى هدفـه. إن مهنته تفرض عليه المـغامرة حتى أنه يغامر فى كل نواحى حـياته.. لا يمكن أن ييأس.. لعله سيـحاول أن يتـصل بها بالتليـفون.. وجرت وجلسـت مرابطة بجانب التليـفون.. ولم تمض ساعة حتى كـان يتكلم.. إنها أول مرة تسـمع صوته.. لا شك أنه هو الذى يتكلم.. وقـال لها: إنه عرفها عـندما عرف بيتها.. وإنه يعـرف أخاها.. ولكنه لا يعرف اسـمهـا.. وقـالت له ودود فى التليـفـون وهى تتـعمـد الدلال وفرحتها بنفسها تشتد :

ـ لن تعرفه.

وقال ضاحكا ضحكة رقيقة :

ـ إلى أن أعرف أريد أن ألقاك.

وقالت وهى تدعى الدهشة :

ـ لماذا.. لماذا تريد لقائى؟

وقال بصوته الملىء بحيوية شبابه :

ـ لا أدرى لماذا؟ ولكنى أدرى أنى أريد.

وقالت :

ـ لا يمكن.. مستحيل.

وطال الحديث بينهما.. وكل منهـما لا يريد أن ينهيه إلى أن استطاعا انهاءه بعد أن قال لها : إنـه سيأتى لزيارة أخيها حتى

تصدقه.. إنه يريد أن يدخل البيت الذى تقيم فيه حتى يحس أنه معها فى بيت واحد.. وأنهما التقيا.

وفى نفس اليوم عاد أخوها إلى البيت وقال : إنه فى انتظار زائر صديق له وانـه لم يزره من قبل رغم أنه يعـرفه منذ زمن طويل.. وقال لهم اسـمه.. واسمه عـبدالرحمن وإن كان اسـمه الحقـيقى فيـه رنين أجمل من رنين اسم عبـدالرحمن.. إنه من اكبر قـبيلة.. قبيلة السادة.. ويقيـم فى بلد آخر ولكنه جاء منذ مدة إلى بلدنا بحكم عـمله كطيار.. وانتظرته ودود إلى أن رأته يدخل إليهم.. أنه أكثر وسامة وأجمل شبابا مما كانت تتصوره عندما رأتـه فى لمحات سـريعة.. واسـتمعت إلـى صوته وهو جالس مع أخيـها فى المبنى المخصص للقـاء الضيوف والذى اسـتطاعت ودود أن تتـسلل إلى جنبـاته لتـسـمع صـوته من ورائها.. وما كادت الزيارة تنتهى ويخرج حتى كان يحدثها فى التليفون.

وتنهـدت نوف كـأنهـا تسـتـريح من ثقل ذكـرياتهـا ثم استطردت قائلة :

ـ لم يكف عنها حديث التليفـون.. ودائما يلح فى لقائها دون أن يقول أبدا لماذا يريد أن يلقـاها؟ لعلها كانت تحلم بأنه يريد الزواج، ولكنه لا ينطق بكلمـة تعنى الزواج.. لقد كـان يستطيع أن يخطبهـا من أخيها إن كـان ينوى الزواج.. ولكنه يتردد على أخيها كمجرد صـديق وإن كانت قد لمحته مرات وهو يتلصص بعينيـه إلى نوافذ البـيت.. وقد بدأ احـساسهـا به يشتـد حتى لم تعد كلما خلت بـنفسها أن تفكر بأبيهـا.. ولم تعد لا تحادث العائلة كلمـا جلست إلى افرادها إلا عن أبيـها.. إن عبـدالرحمن أصبـح يشغل كل فكرها وكل احـساسـها.. وإن كـانت أحيـانا

تعود وتذكر أباها كأنها تلومه لأنه تركها وحدها.. لو كان رب العائلة معهم فربما تغيرت القصة وجاء عبدالرحمن ليخطبها.. وهو لا يكف عن إلحاحه لترضى بلقائه.. وهى تعاند فى رفضها حتى أنها لم تعد تخرج إلى الأسواق حتى لا تلتقى به ولو من بعيد.. ولكنها تريد لقاءه.. حتى وهى لا تدرى لماذا تريد لقاءه فإنها تريد.. إنها مثله.. ولكن كيف تلقاه؟ إنها بعد أن عاشت وكبرت عرفت أن لقاء البنات والأولاد يتم فى الخارج بسهولة.. فى لندن أو أمريكا أو باريس بعد أن يكن قد خلعن العباءة.. ولكن كيف تستطيع لقاءه فى بلدها وسط هذا المجتمع المقفول المعقد كأن أهله يعيشون فى كهوف؟ ولكنها تستطيع، وهى جريئة كجدتها وتستطيع كل شىء. وقد قررت أن تلقاه بعد أن ينام كل أهل البيت، وتخرج إليه متسللة فى الليل ويكون فى انتظارها بسيارته.. ولكن كيف تخرج إليه والحارس على الباب.. إنه حارس عاش معهم العمر كله ويطيع كل أفراد العائلة بحب، لا يسأل أبدا ولا يتردد مادام قد تلقى أمرا. إنه عبد ولا يزال عبدا.. ثم أنه يحبها هى بالذات من كثرة ما تعطيه كل ما يحتاج إليه.. يحبها كأنها ابنته.. وحتى لو أرادت ابنته أن تتسلل خارج البيت فى الليل.. وقد اتفقت مع عبدالرحمن على كل هذا بعد أن تركته ينتظر ويحتمل طويلا.. وفتح لها الحارس الباب وقفزت فى السيارة التى تعجبها وكانت أول ما جمع بينها وبين عبدالرحمن، وانطلق عبدالرحمن بالسيارة فى المزارع الشاسعة التى تعتبر من أراضى العائلة ثم وقف تحت حفيف بعض أشجار النخيل.. ونظر إليها كأنه يسألها من أين يبدأ؟ لقد وصل إلى ما يريد وكانت هى أيضا تريد.. مجرد اللقاء.

وعادت نوف تتنهد وعيناها مرخيتان مغمضتان على ذكرياتها ثم استطردت :

ـ لقد استمر اللقاء مدى عام أو أكثر.. كل ليلة أو كل ليلتين وكانا يلتقيان فى الساعة التاسعة مثلا ولا يفترقان إلا فى الثانية أو الثالثة صباحا والبلدة كلها نيام.. ولم يكن يقطعه إلا سفره إلى بلده وعائلته.. ثم يعود ليعود اللقاء.

وقال وكأنه ينبهها إلى نقطة هامة فى القصة :

ـ إلى أى مدى كان يصل هذا اللقاء.

وقالت والدماء تتجمع فى وجنتيها كأنها تخجل من ذكرياتها :

ـ مجرد لقاء.. أحاديث.. كلام.

قال وكأنه يلومها على الكذب عليه :

ـ ألم يكونا فتى وفتاة.. رجلا وامرأة؟

وفتحت عينيها وقالت كأنها تدافع عن نفسها :

ـ لا.. لا.. لم يحدث.

وقال مبتسما :

ـ ألم يتبادلا القبلات؟

وقالت وهى تحنى رأسها وتبعد عنه عينيها :

ـ كانت أول قبلات تذوقها فى حياتها ولا يزال طعمها بين شفتيها حتى اليوم.

قال فى لهجة طبيب :

ـ وظلت عذراء.

وقالت فى صوت هامس :

ـ عذراء...

وعاد يسألها كأنه لا يصدقها:

ـ كلها عذراء؟
وهمست فى صوت خافت :
ـ كلها.

ونظر إليها كأنه يلومها.. إن المريضة تضطر أحيانا إلى الكذب حتى على الطبيب، وهو يسأل لأنه يعتقد أن العلاقة بين المرأة والرجل لها تأثير مباشر على حالتهما النفسية وحالة كل منهما بالنسبة للآخر.. ويهمه دائما أن يعرف متى بدأت هذه العلاقة؟ هل بدأت بعد أن وصل الحب إلى قمته أم بدأت والحب لا يزال على السطح؟ وقد يذوب قبل أن يصل إلى القمة.. والفرق كبير.. إنه الفرق بين اللحظة التى نعيشها والمستقبل الذى نتمناه.. ولكنه لم يسألها أكثر.. وسكت.. وسمعها تقول بصوتها الخافت وعيناها ساهمتان :

ـ قبل أن يمضى العام بدأت ودود تحس بالحيرة وهى تعيش هذا العالم الجديد.. العالم الذى انتشلها مما تعانيه من غيبة أبيها.. عالم الحب.. وبدأ تساؤل يلح عليها، ما المصير؟ إنها لا تستطيع أن تتصور نفسها كأنها ستعيش العمر كله وهى تلقاه هذا اللقاء المسروق.. وهو رغم أنه لا يكف عن الكلام ورغم أنها تهيم مع كل ما يقول لم يكلمها أبدا عن المصير.. عن الزواج.. وهى من ناحيتها لا تستطيع أن تسأله الزواج.. لا يمكن.. إنها معتزة بنفسها وبأصلها بحيث لا يمكن أن تستجدى الزواج ولا من ابن ملك الملوك.. ثم صدقنى أن ودود كانت فتاة مؤمنة غارقة فى إيمانها بالله.. كانت رغم كل جرأتها التى تتميز بها عن اخواتها ورغم انطلاقها فى اختيار مظهرها وتصرفاتها كانت مؤمنة وكانت تصلى وإن كانت تفوتها بعض الصلوات، كمظهر من مظاهر جراءتها حتى على

تعاليم الله وقد بدأت تخاف الله فيما بينها وبين عبدالرحمن، لماذا لا يتزوجها حتى يحميها ويحمى نفسه من غضب الله؟ بل كانت أحيانا تهيم فى حيرتها حتى لو اشتراها كأمة ويأخذها كجارية من الجوارى ، إنه الشرع الذى يحمى من غضب الله : ﴿فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم﴾.. إنه يرفض أن يملكها بإيمانه وإن كان من المستحيل أن يشترى فتاة من عائلة الطواش.. إنها عائلة أقدم أصالة من عائلته مهما تباهى بأصله.. وكل هذه الحيرة بدأت تعذبها بل بدأت تكون أثقل عليها من عذابها بغيبة أبيها.. وبدأت تقاوم عبدالرحمن.. إنها لا تخرج إليه كل ليلة.. قد لا تخرج إليه إلا بعد أسبوع.. وتعمدت مرة أن يمر اسبوعان دون أن تخرج إليه.. وهو لا يكف عن إلحاحه وعن غضبه الذى يصل إلى حد الثورة عليها وهو يحدثها بالتليفون.. بل أنها بدأت ترتاح عندما يترك البلد ويسافر إلى المدينة الأخرى البعيدة ليرى أولاده.. كأنه يريحها من ثقله ويتركها هائمة مع حيرتها رغم أنها كانت فى البداية تبكى لابتعاده وتعيش تنتظره بدموعها.

وقاطعها يسألها فى دهشة :
ـ هل كان متزوجا؟
وقالت فى بساطة :

ـ طبعا.. إنه فى الخامسة والعشرين من عمره فكيف لا يكون متزوجا؟! ونحن فى بلدنا مازلنا نعطى للرجل كل حقه وكل سطوته وكل أنانيته، وحقه هو أن يتزوج مثنى وثلاث ورباع وإن كان يصل إلى خمسة وعشرة وعشرين.. إنهم بحكم طبيعتهم الاتكالية يتكلون على شرع الله فقط ليتهربوا مما أنذرهم به عقابا.. وإن كانوا لا يستطيعون أبدا أن يصلوا

إلى أمر الله بأن يعدلوا.. من المستحيل أن يعدلوا.. ورغم أن بنات هذه الأيام أصبحن أقوى من أن يركن للزوج كل حريته فى فرضهن بين أرقام زوجاته المتعددات إلا أنهن فى النهاية وحتى فى البداية لا يستطعن إلا الاستسلام.. إن زوجى الذى أعيش معه وأعزه واحترمه تزوج قبلى وإن لم يتزوج بعدى.. وإن تزوج فماذا أستطيع..؟ لا شيء.. وودود كانت لا تحس بزوجة عبدالرحمن وأولاده.. إنهم فى بلد آخر.. وكله لها فى بلدها ولا تحس بأنه متزوج من غيرها.. وهو قطعا لا يحب زوجته ولا يذهب إليها شوقا أو احساسا بها إنما يذهب لرؤية أولاده.. إنه لا يحب إلا ودود وإن تزوجها فسيكون كله لها.. لن يجمعها فى بيت واحد هى والأخرى.. ولن يقيم لها بيتا فى فناء واحد مع البيت الآخر.. إنه سيتزوجها هنا فى بلدها وسيكون لها وحدها.. ولكنه لن يتزوجها.. وحبه ليس له مصير.

وتنهدت نوف تنهيدة كأنها تتحسر على نفسها والتقطت أنفاسا عميقة ثم استطردت قائلة :

ـ لقد كان يخطر على بالها أحيانا أنه لا يتزوجها لما يعرف عن أبيها من شذوذ وانحلال وضياع فى العالم الغريب البعيد. كيف يجازف بأصله ومكانته ومسئولياته ويتزوج ابنة هذا الرجل؟ ونحن فى بلادنا يحسبون حسابا كبيرا للتصاهر بين العائلات.. عائلة مَنْ تصاهر عائلة مَنْ.. وقد يكون أبوها مظلوما فى هذا الذى يخطر على بالها.. وهو رغم حياته الشاذة لا يزال اسما كبيرا ولا يزال يحمل مجد العائلة كلها.. عائلة الطواش.. ولكنها عادت تكتب إليه الخطابات.. وهى لا تستطيع

أن تتجرأ إلى حد أن تتهمه فى خطاباتها أو حتى تلومه. إنها تكتب ربما لأنها منذ تعلمت وهى تفرج عن نفسها بالكتابة وكان كل ما تتصف به خطاباتها الجديدة هو الجفاف والكلمات المرة التى تحكى بها عذابها تحت ستار الوحشة إليه.. وكانت تكتب وهى تعلم أنه لن يرد عليها بل قد لا يقرأ ما تكتبه.. ولكنها فوجئت بابن عم أبيها يدخل عليها يوما ويقول مبتسما.. هذا خطاب من أبيك وقد أوصى أن يسلم إليك فى يدك.. وذهلت وهى تمد يدها مرتعشة ثم قفزت فرحا وهى تخطف الخطاب وتجرى به بعيدا لتخلو به.. إنه بضعة كلمات، وهو يدعوها للسفر إليه فى لندن وقد أوصى ابن عمه ليصحبها إليه.. وكادت تصرخ من فرحتها.. إنها سترى أباها بعد أكثر من خمس سنوات لم يكن خلالها قد جاء إلى البلد وقضى فيها هذه الأيام القليلة التى لا ينوبها فيها منه سوى لمحات.. ثم انها ستسافر.. ستركب الطائرة.. وسترى لندن.. إن نصف أهل البلد تعودوا أن يسافروا إلى الخارج خصوصا إلى لندن ويقضوا هناك شهورا ويعودوا متقصين كأنهم ناس غير ناس.. أما هى فلم تكن قد سافرت بعد.. لم يكن أبوها يفكر فى دعوة العائلة إليه ولا أحد منهم كان يهمه أن يصحبهم فى سفر.. وهى الآن ستسافر وحدها.. إلى لندن.. إلى أبيها.. لاشك أن أخوتها سيجنون حسدا وغيظا ونقمة.. أما أمها فهى لن تحس بشيء.. إنها تترك الحياة تتصرف بها وبأولادها كما تريد.. إنها الزوجة التى لم تسأل أبدا أين زوجها؟ والأم التى تعتبر نفسها مجرد إناء لطبخ العيال.. ولن تتساءل أبدا عن سفر ابنتها ودود.. ولكن العائلة كلها تعيش فى ضجة لهذه

الدعوة التى وجهها الأب إلى ابنة واحدة من بناته.. وودود خلت إلى نفسها واتخذت قرارا.. لن تقول لعبد الرحمن عن سفرها.. ستتركه يفاجأ بغيبتها، وستحاول هى نسيانه وربما وجدت فى لندن ما ينسيها.

واستطردت نوف تقول فى إرهاق :

ـ وسافرت.. وبدأت قصة جديدة.

ثم التفتت إليه وقالت كأنها تتوسل :

ـ يكفى هذا اليوم.. لقد تعبت من طول ما حكيت.

وقال ووجهه غارق فى ابتسامة كأنه يشكرها بها :

ـ إن تعبك كما قلت لك هو دواء مشكلتك.. وسترتاحين طوال العمر.

واعتدلت فى جلستها كأنها تلقى بخيالها وراء ظهرها وقالت مبتسمة :

ـ إنى فعلا ارتاح كلما التقيت بك.. وإن كنت أعيش فى انتظار اللقاء التالى وأنا أحس بحاجتى إليك.. هل أقول خبرا جديدا؟

قال وهو يحتضنها بابتسامته :

ـ خيرا.

وقالت وفرحتها تزغرد مع كلماتها وتنظر إليه وكأنها تقبله بعينيها :

ـ لقد كان المفروض أن نسافر كلنا بعد غد.. ولكنى استطعت أن أؤجل السفر أسبوعا آخر.

قال وهو يبتعد عن عينيها كأنه يقاومها :

ـ كيف استطعت؟

قالت ضاحكة :

ـ ادعيت أنى أفصل ثوبا جديدا لن تستطيع الخياطة أن تنتهى منه قبل أسبوع.. إننا نلجأ دائما إلى الخياطات والحلاقين لتحقيق حريتنا.. وقد صحبتنى سميحة فعلا إلى خياطة واتفقت معها على ثوب لا تنتهى منه إلا عندما أطلب منها أن تنتهى.

ثم مالت برأسها بعيدا عنه وقالت فى خفر :

ـ إنى فى حاجة إليك.

وقال وهو يبتلع ريقه كأنه يقاوم نفسه :

ـ وأنا أيضا فى حاجة إليك.

ثم نظر فى ساعته بسرعة كأنه قرر أن يهرب وقال :

ـ الساعة السادسة إلا ربعا.. أفضل أن انصرف قبل أن تأتى سميحة حتى ننفرد بلقائنا حتى نهايته.. وقام واقفا وهو يدير ظهره إلى الفراش حتى لا يراه يحضه على البقاء.. وقامت واقفة تكاد تلتصق به وهى تقول :

ـ أتمنى أن تبقى ولو دقائق.

ومد يده ومسح على شعرها وقال خلال ابتسامة حالمة :

ـ أتمنى أن أرى شعرك دائما مفرودا.. لا تحرمينى منه.

وقالت مع ضحكة حلوة خافتة :

ـ إنى أتركه مفرودا فى بلدنا وأغطيه بالعباءة عندما أخرج.. لا أستطيع أن أضع العباءة هنا ، إنى أهرب منها بمجرد أن اجتاز الحدود، ولكنى سأعود إليها إذا جئت إليك حتى أعطيك شعرى مفرودا على كتفى.

قال وكفه لا تزال تمسح على شعرها :

- متى سيكون لقاؤنا؟

قالت :

- كالعادة سأتصل بك صباح الغد بالتليفون.

ومرت بينهما لحظة صمت.. وكفه فوق شعرها وعيناه تشربان من وجهها.. وأرخت عينيها كأنها قررت الاستسلام.. ربما كانت تنتظر أن يضمها.. ولكنه رفع يده بسرعة واستدار لها.. وخطا بسرعة نحو الباب.. وخرج.

وجرت وراءه دون أن تلحقه.. وسمع الباب يغلق وراءه.. وابتسم فإنه يهنيء نفسه لأنه استطاع أن يقاوم هذا الفراش الذى كان ممدودا أمامه.

٥

مضى يومان ونوف تتصل به بالتليفون وتعتذر له عن عدم لقائهما.. إنها لا تستطيع، وهو لا يستطيع أن يفهم أو يقدر كيف تكون فتاة مثل نوف حرة فى كل شىء إلا فى حق الخروج وحدها إلى الشارع لتأتى إليه.. إنه مجتمع عجيب.. مجتمع يبيح الحرية كلها داخل الجدران ويحرمها كلها خارج الجدران.. كما يبيحها للبنت من تحت العباءة ولا يسمح برفع العباءة حتى يرى الناس بعضهم البعض كما هم وعلى حقيقتهم. إنه مجتمع يخاف الحقيقة.. حقيقة الإنسان، ويرفض أن يراها فيخفيها تحت ما يسميه تقاليد.

وفى صباح اليوم الثالث جاءت إليه فى مكتبه بعد أن اتصلت به بالتليفون.. وكالعادة تركتها صديقتها سميحة التى جاءت بها وخرجت لتخلو به ويخلو بها.

ولكنها لم تكن ترتدى العباءة كما وعدته لتخفى شعرها المدلى على كتفيها.. وكان شعرها معقوصا فوق رأسها كالتاج وإن كانت لم تشبكه بفصوص الماس كما كانت تفعل.. ربما استجابت لنصيحته، ثم ما كادت تجلس بجانبه حتى رفعت يديها والتقطت من بين شعرها بعض الدبابيس الصغيرة التى تشبك بها شعرها.. وكلها دبابيس من نفس لون شعرها حتى

لا تبدو منه.. تماما كما نصحها.. وما كادت ترفع الدبابيس عنى سال شعرها فوق كتفيها.. الشعر الناعم الغارق فى السواد.. وأصبح كهالة تحيط بالقمر.

وقال ضاحكا ويده تمسح على شعرها المدلى له :

- لماذا لم تأت وأنت تحت العباءة كما وعدتنى ؟

وقالت مبتسمة :

- لم استطع.. إنى لا أستطيع أن أخرج من البيت فى بلدنا بلا عباءة.. فإذا ابتعدت عن بلدى لا أستطيع أن أخرج بالعباءة.. أخاف أن يضحك الناس ويسخروا منى. إننا نرتدى العباءة فى بلدنا كأننا نرفع العلم ولكننا ونحن فى بلد آخر لسنا فى حاجة إلى رفع علمنا.. وكنت قد قررت أن اطلق شعرى بمجرد أن التقى بك.. أم نسيت شعرى.

وقال فى رنة عاطفية كأنه يطارحها احساسه :

- لا يمكن أن أنسى منك شيئا.. لقد أصبحت موضوعا يشغل كل فكرى.

وقالت كأنها تلومه :

- هل أنا مجرد موضوع أم انسانة؟!

وقال وهو ينظر إليها كأنه يشرب من عينيها :

- إن كل إنسان عزيز هو موضوع بالنسبة للإنسان الآخر الذى يعزه.. فأنت لست مجرد إنسان كباقى النساء ولكنك اصبحت موضوعا يشغل بالى، وقد افتقدتك فى اليومين الماضيين وأنت غائبة عنى، حتى أن أفكارا عجيبة بدأت تضج فى راسى. لقد تذكرت أنك قلت لى : إنك كنت تلتقين بعبدالرحمن بعد أن ينام أهل البيت فلماذا لا تلتقين بى أيضا بعد أن ينام من معك؟ وأنتظرك فى التاسعة أو العاشرة ونبقى

داخل سيارتى حتى الفجر حتى أسمع حكايتك كلها.

وقالت فى ابتسامة كبريق الفضة :

- إننا لا ننام إلا داخل بلدنا فإذا خرجنا منها فإننا لا ننام، وسواء سافرنا إلى لندن أو باريس أو القاهرة فإن يومنا يبدأ بالطواف على الحوانيت.. نشترى.. ونشترى.. ونشترى.. حتى إذا زهقنا من الشراء استمر طوافنا للفرجة.. وقد نتفرج لمجرد التسلية.. ثم نعود إلى حيث نقيم لنبدأ الاستعداد للسهرة.. كل ليلة نقضيها فى ناد أو مسرح أو فى زيارة صاخبة يكون قد دعانا إليها أحد الأصدقاء وأعد لنا فيها من يغنى أو من يرقص.. إننا نتبادل اقامة الحفلات فى الخارج أما فى الداخل فكل ما نتبادله هو الزيارات لا الحفلات.. وكل شىء نجده لقضاء السهرة وخصوصا فى لندن.. إن ملاهى الليل هناك اصبحت كأنها ملاه عربية حتى لا يفرضوا علينا لغتهم الإنجليزية فى تسليتنا.. وطبعا القاهرة لا ينقصها سهرات الليل.. ولكنى فى لندن أتمتع بحرية أكثر ربما لأننى هناك أحس أنى فى بلاد العرب.. أما القاهرة فهى عربية.. وقد كنت أتمنى أن نلتقى فى لندن.. كنت أستطيع أن أتمتع بحرية أكثر.. حرية لقائك.

وسكتت برهة وهى تلصق عينيها بعينيه ثم قالت فى إغراء كأنها تحرضه وتشده إلى أحلامها :

- هل أستطيع أن ألقاك فى لندن؟

وقال وقد بدأ يحس أنه يقاومها وتنحنح وهو يبعد نفسه عنها :

- لا أدرى، لإنى لم أتعود أتخاذ قرارات ولكنى تعودت الاستسلام للقدر، ولا أدرى ما سيدفعنى إليه القدر؟

وارتعشت عيناها كأنها خرجت من أحلامها وكأنها تذكرت ثم ابتعدت عنه وألقت ظهرها على المسند وقالت ساهمة وكأنها تحادث نفسها :

- لعل مشكلتى هى مشكلة القدر.. قدرى.

وعادت ساهمة صامتة.. وقال لها بعد برهة كأنه يصمم على اختيار من أين تبدأ ؟

- لقد قلت لى : إن أباك أقصد أبا صديقتك ودود قد دعاها لزيارته فى لندن.. لأول مرة تسافر إليه وتلتقى به.. فماذا رأت ودود فى لندن؟

وقالت من خلال ابتسامة مسكينة :

- لم يكن يهمها أن ترى إلا هو.. أبوها.. إنه لم يتغير عن صورته التى كانت تسيطر على خيالها رغم أن السنين بدأت ترسم خطوطا تحت عينيه وعلى جانب وجنتيه.. وقد استقبلها وهو ينظر إليها نظرات غريبة كأنه فوجىء بها وكأنه لا يصدق أنها ابنته. إنه ينظر إليها كأنها امرأة التقى بها.. مجرد امرأة.. وربت على كتفيها دون أن يحاول تقبيلها قبلة الأب وقال من خلال ابتسامته الحلوة القوية.. ابتسامة الرجل.

- كبرت.

ثم صافح ابن عمه الذى جاء بها إليه ثم تركه ينصرف خارجا والتفت إلى ودود قائلا:

- ما الذى كان يدفعك إلى كتابة هذه الخطابات؟

وقالت فى خفر وكل ما فيها يرتعش ولكنها مصممة أن تحتفظ بشخصيتها أمامه: إنها ليست كأمها أو كبقية أخوتها .

- لم أكن أرى أبى فكنت أكتب إليه.

قال من خلال ابتسامته :

- وماذا تريدين من أبيك؟ وقالت فى خفر :

- فقط أن أراه ويرانى.. إنه أبى.

وابتسم دون أن يرد عليها.. إنه لا يمكن أن يحس بما تحس به.. لا يمكن أن يحس بأنه أب وهذه ابنته.. وكانت تستقبلها معه زوجته المصرية فقال وهو يلتفت إليها :

- سلمى على عمتك عفاف.. لابد أنك سمعتم بها فى البلد.. إنى أعرف أن أخبارى تصل إليكم أولا بأول.

ومدت ودود يدها إلى عفاف فى نفور ودون أن تقترب منها لتقبلها.. لا لأنها زوجة أبيها لقد تعود الأبناء عى أن يتزوج الأب مرة واثنتين وثلاثا وأربعة.. بل أن تعدد زوجات الأب هو مظهر من مظاهر ثراء العائلة وسطوتها مما يفخر به الأبناء.. ومن حق الأب أن يتزوج ولو مائة من بنات البلد، أما إذا تزوج من أجنبية حتى لو كانت عربية فإن الأبناء يشعرون نحوها بأنها غريبة لايجمعهم بها أصل ولا فصل وإنها لم تتزوج اباهم اعترافا بسطوته بين أهل البلد إنما لمجرد أنها طامعة فى امواله وثرائه، قادرة على أن تغتصب هذه الأموال من أولاده.. وربما كان أشد من ينفر منهن الأبناء هن الزوجات السوريات واللبنانيات.. إنهن أشد طمعا فى استغلال أبيهم.. أما الزوجات المصريات فهن غلابة مستسلمات لا يطمعن فى أكثر مما تعطيهن الحياة.. ورغم نفور ودود فقد شدتها عفاف إلى صدرها واحتضنتها وانهالت عليها بقبلاتها وهى تردد :

- الحمد لله على السلامة.. نورت وشرفت.

ولم تدعها بلفظ ابنتى مجاملة لها باعتبارها ابنة زوجها.. ربما لأنها تبدو صغيرة فى السن.. إنها أصغر من أبيها بكثير ولا يمكن أن تقبل أن تكون أما لابنة فى عمر ودود.

وشدها أبوها لتجلس بجانبه وأخذ يسألها عن أخبار أخوتها الذين لا يعرفهم أسماء أكثرهم.. وأخبار أبناء العمومة والأخوال وأخبار البلد، وكان آخر ما طرأ على باله السؤال عنه هي أمها.. الإناء الذي يحتفظ به في البلد ليطبخ له العيال كلما مر به.. وكانت زوجته عفاف تتركهما أحيانا إلى داخل البيت ثم تعود إليهما.. إلى أن قام أبوها قائلا :

ـ عفاف ستوفر لك ما تريدين.. أوصيتها.

ثم فتح باب البيت وخرج.. وقالت لعفاف وهي بجانبها وكلتاهما تتبع الأب بعينيها :

ـ متى يعود؟

وقالت عفاف من خلال ابتسامة ساخرة :

ـ علمي علمك.

وعادت ودود تسأل في غل كأنها تقاوم الاستسلام لطبيعة أبيها :

ـ وأين يذهب ؟

وقالت عفاف بلا اهتمام :

ـ إنه لا يقول لي وأنا لا أسأله.. تعال يا حبيبتي.

وسارت بها إلى الغرفة المخصصة لها وودود تتطلع حولها إلى أنحاء البيت.. إنها شقة واسعة.. ثماني غرف.. وفي عمارة رائعة تطل على حديقة عرفت أنها حديقة هايد بارك والحوائط كلها مزينة بلوحات مثيرة وآيات قرآنية مكتوبة بماء الذهب.. والتحف الغربية تملأ كل الأركان.. لعلها مما تسمع أنها تباع بثمن غال.. والأرض كلها مكسوة بالسجاد العجمي.. إن أباها لا يزال غنيا واسع الثراء رغم كل ما بعثره.. رغم أنه أضاع تجارة اللؤلؤ ولم يعد يستحق لقب طواش حتى لو كان اسما

للعائلة بل أنه وصل إلى أن باع كثيرا من الأراضي التي كانت العائلة تملكها دون أن يستطيع أحد من أخوته أن يوقفه أو يعترض.. أضاع كل ما تركه أبوه عبدالله الطواش رحمه الله، ورغم ذلك فهو لا يزال غنيا واسع الثراء.. استطاع كما قلت لك أن ينتقل من عصر اللؤلؤ إلى عصر البترول دون أن يتعرض لأي معاناة. إنه ذكي ومشهور بين الناس بذكائه، ومعروف أنه ثقف نفسه حتى أنه يستطيع أن يتكلم الانجليزية بطلاقة ويتعامل بها.. وكل ذكائه وكل ما يبذله من جهد محصور في إبداء رأيه.. لا يكلف نفسه أبداً بأي عمل تنفيذي ولا حتى بمتابعة تنفيذ رأيه وهذا الذكاء هو الذي ربط بينه وبين كثير من المسئولين.. السادة أصحاب السلطة وأصحاب النهي والأمر.. كانوا يحتاجون دائما إلى آرائه وكانوا يعتبرونه مستشارا أو وزيراً ولكنه لم يكن يحتاج أبدا إلى لقب أو مظهر المستشار أو الوزير.. كان يعيش حريته كاملة.. وربما كان أيضا ينسب إليه كثير من عمليات الاستيراد والتصدير والمشروعات الضخمة التي تنسب إلى رجال الأعمال.. ولكن لم يكن أحد يعلم فيما يتاجر ولا ما ينسب إليه.. وأنت تعلم أن بلادنا تحرم الاتجار وعمليات التنمية على الأجانب وحتى على الشركات الأجنبية فكان كل أجنبي أو كل شركة أجنبية تبحث لنفسها عن اسم من بين المعروفين من أبناء البلد لتتستر وراءه وتعمل به، وصاحب هذا الاسم كان يناله أرباح ضخمة ومبالغ هائلة كحق له في كل عملية.. وهي لا شك أموال كانت الشركات تضعها في الميزانية التي تقدمها للدولة.. أي لا تخسر الشركات شيئا مهما دفعت لصاحب الاسم الذي تستغله.. وربما استطاع عدو أن يجعل من نفسه أحد هذه

الأسماء ويثرى دون أن يكلفه ثراؤه سوى ابداء رأيه إذا خطر له أن يبديه.. وأنا أقول لك كل هذا بعد أن عرفته خلال تطورات حياتى.

وتنهدت نوف دون أن تتحرك فى جلستها تستريح من طول الكلام ثم قالت دون أن تنظر إليه :

- هل استطيع أن اطلب كوبا من الماء ؟

وقال فى اعتذار :

- آسف.. نسيت أن أطلب الشاى أم تفضلين شيئا من المثلجات؟

وقالت دون أن تنظر إليه :

- أريد أن أشرب.. أى شىء.

وضغط على جرس ليستدعى السفرجى وقبل أن يأتى استطردت نوف فى حكايتها :

- المهم أن ودود لم تجد فى أبيها شيئا تغير.. إنه هو هو.. بل أصبح يخيل إليها أن ما بينه وبين زوجته المصرية الصغيرة الجميلة هو نفس ما كان بينه وبين زوجته الأولى أمها.. مجرد إناء يسكب فيه بذور الإنجاب.. وقد انجب من عفاف اثنين.. ولدا.. وبنتاً.. أين هما؟ لقد تركتهما عفاف فى القاهرة مع أهلها فزوجها عدوان لم يدعها إلا وحدها لتقضى معه فترة فى لندن.. ولعله لا يعرف أسماء أولاده منها كما لا يعرف أسماء أولاده الآخرين.. ولكن عفاف لا يمكن أن تكون كأمها.. إنها ذكية تمتلىء بحيوية الحياة.. بل يخيل إليها أنها تعطى لنفسها من متع الحياة الخاصة ما يعطيه زوجها لنفسه.. وقد استطاعت عفاف بذكائها ومرحها وحيويتها أن تكسب حب ودود منذ اليوم الأول.. استطاعت أن تأخذها كأنها

صديقتها وليست زوجة أبيها.. وملأت كل أيامها.. إنها تأخذها كل صباح إلى حوانيت شوارع لندن.. وودود تذهل.. إنها لم تكن تتخيل رغم كل ما سمعته أن فى الدنيا كل هذه الفساتين.. وكل هذه الأقمشة.. وكل هذه الجواهر.. والذهب والماس والياقوت والزمرد وكانت تضعف أكثر أمام الماس.. إن الماس هو قمة البغددة والثراء.. وهى تشترى وتشترى.. لم تكن تشترى فستانا واحدا لنفسها ولكنها تشترى عشرة فساتين مثلا.. تشتريهم لأخوتها وصديقاتها اللاتى ستعود إليهن.. ولم تكن تعرف مقاسات أخوتها وصديقاتها ولكنها تعرف أن هذه أطول منها قليلا وتلك أسمن منها قليلاً.. وتشترى.. وعفاف كأنها تحضها على الشراء ولا تشفق على أموال أبيها.. ولم يكن يبدو عليها الانبهار ولكن كان يبدو عليها انها واعية تفهم فى كل شىء بل تناقش الأثمان ولا تترك ودود تشترى إلا بعد أن توافق على ما تشتريه.. وقد خيل لودود أن عفاف لا تشترى شيئا لنفسها ولكنها كانت تلاحظ أنها كانت أحيانا تبتعد عنها وتخطو إلى مكان آخر وتقف قليلا ثم تعود إليها.. وعندما يخرجان من المحل كله تجدها تحمل كيسا صغيرا كأنها اشترت لنفسها شيئا ولكنها لا تقول لها ماذا اشترت؟ وودود لا تهتم بأن تسأل، إنها تعيش فى انبهارها بما رأته وبما اشترته لنفسها.. وفى بعض الليالى كانت عفاف تصحبها إلى ملهى ليلى يعرض الفنون العربية أو إلى مطعم فاخر يتناولن فيه طعام العشاء.. ولم يكن أبوها عدوان يصحبهما ولكنهما كانتا يخرجان بصحبة عائلة من العائلات التى تعرفها عفاف أو مع ابن عم أبيها عدوان.. وطبعا لا تخرجان فى الصباح أو المساء إلا بعد استئذان أبيها

عدوان، وزوجته تستأذنه بحجة الترفيه عن ابنته وتحقيق متعتها بزيارة لندن.. وعدوان غالبا ما يوافق فهو نفسه يتغير فى لندن عما يمكن أن يكون عليه فى بلدهم.. وينسى التقاليد.. وهو غائب دائما عنهما وعن البيت.. حتى فى الليالى التى كانتا تقضيانها فى سهرات لندن كانتا تعودان قبل أن يعود.. فإذا عاد دخل مباشرة إلى غرفة زوجته.. إلى الإناء الذى يفرغ فيه بذوره.. وكان أحيانا يحرمها من الخروج لأنه دعا بعض الأصدقاء.. وكان ينعزل بأصدقائه فى أبهاء الاستقبال بينما هما سجينتان فى غرف النوم، وكان هو وأصدقاؤه يبدءون بشرب الشاى.. ثم يلتفون حول مائدة خضراء يلعبون فوقها الكوتشينة أو الرولت.. إن فى البيت كل أدوات اللعب.. ولا ينتهون من سهرتهم إلا عند الفجر.. وودود وعفاف مختبئتان.

وابتسمت نوف من تحت عينيها الساهمتين واستطردت قائلة :

- مهما كان من عدوان فقد كانت ابنته ودود سعيدة إلى حد الانبهار بزيارتها الأولى للندن.. كانت تحس كأنها تولد من جديد فى عالم جديد.. يكفى أنها لا تلبس العباءة عندما تخرج إلى الشوارع وتتمتع بعرض كل ثوب جديد تشتريه على المارة.. بل وجدت موضة الفساتين القصيرة التى ترتفع فوق الركبة فارتدتها وسارت بها مكشوفة فى الشوارع، وكانت أحيانا تقابل بعض العرب نساء ورجالا يعرفونها أو يعرفون زوجة أبيها فيقفون ويتحدثون دون أن يخطر على بال أحدهم أن يلحظ ما هو عليه الآخر من تغيير فى كل شىء.. الوجه المكشوف.. والشعر المكشوف.. والصدر المكشوف حتى قبل النهدين والركبتان المكشوفتان.... لا أحد يلاحظ أو يعترض

وكأنهم كلهم من أهالى لندن وليسوا من أهالى بلادهم.. إن الحرية إلى حد الانطلاق متعة.. متعة رائعة.. هائلة.. وقد عاشت ودود هذه المتعة شهرا كاملا إلى أن حدثت المفاجأة.. الصدمة.. التى عادت تحكم فى حياتها.

وتنهدت نوف وأسقطت رأسها بين كفيها وانسدل شعرها فوق وجهها وظلت صامتة كأن الستار قد اسدل على المسرحية أو على الفصل الأول من المسرحية.

وقال وهو متقمص شخصية الطبيب النفسى كأنه يحاول أن يخفف عنها ويستدرجها إلى اعادة فتح الستار عن المسرحية :

- لقد جاء السفرجى بأكواب مثلجة ولم تشربى.

ورفعت إليه رأسها وبين شفتيها ابتسامة باهتة، ثم مدت يدها والتقطت الكوب وارتشفت رشفة واحدة ثم أعادته إلى مكانه وعاد يقول لها :

- لقد أزعجتنى عندما قلت إنه وقعت لك صدمة.. آسف.. أقصد الصدمة التى وقعت لصديقتك ودود.

وألقت ظهرها على مسند المقعد وأزاحت خصلات شعرها عن وجهها وقالت وعيناها بعيدتان عنه :

- لا تنزعج.. إنها دائما بخير.. ولكنها فوجئت ذات صباح وهى فى لندن بالتليفون الذى يصل شقتهما بباب العمارة يدق. إن النظام فى لندن لا يسمح لزائر بدخول العمارة إلا إذا اتصل بالتليفون بالشقة التى جاء إليها فيضغط أهل الشقة على زرار يفتح له باب العمارة، وكانت ودود قريبة من هذا التليفون فرفعت السماعة.. وارتعشت.. إنه صوته.. ولم يقل شيئا أكثر من ترديد اسمه مجرد أن سمع صوتها فى سماعة التليفون :

ـ أنا عبدالرحمن.

ودون أن تدرى.. ودون أن تنطق بكلمة.. وجدت أصبعها يمتد إلى الزرار الذى يفتح له الباب.. وألقت سماعة التليفون.. ولكنها قالت لنفسها كأنها أفاقت: إن أباها ليس فى البيت.. ويجب أن تبلغ عفاف زوجة أبيها قبل أن يصعد إليهما.. وجرت إليها وأبلغتها أنه زائر من بلدهم وهو معروف ومن القبيلة المعروفة وصديق لأخيها ويريد لقاء أبيها عدوان.. وقد فتحت له الباب رغم غيبة أبيها.. وابتسمت عفاف فى مرح.. أنها تحب أن تلتقى بالرجال حتى لو كانوا غرباء عنها.. ووقفت معها فى استقباله.. ودخل عبد الرحمن بوجهه الوسيم ولحيته الصغيرة التى تحيط بذقنه وقامته الطويلة الممشوقة مرتديا زيه.. زى رجال الطيران.. إنه يتعمد ارتداء هذا الزى كلما كان فى مهمة أو لقاء يريد أن يكون له فيه تأثير قوى خاص.. ربما كان يريد التأثير بهذا الزى على أبيها.. وعرفت ودود وهى تراه أنها لم تنسه أبدا.. وحبها لم يخفت أبدا.. إنها تحبه.. تحبه.. واستقبلته عفاف بترحاب كبير وهى تعتذر له بأن زوجها عدوان ليس موجودا ولكن أهلا وسهلا.. قال لها فى أدب :

ـ إنى أقيم فى فندق تشرشل لعله يستطيع أن يتصل بى.

ولكن عفاف أصرت على أن يبقى حتى تقدم له الشاى.. وودود صامتة وعيناها معلقتان بوجهه كأنها فى ذهول، وهو يرد على عفاف وعيناه معلقتان أيضا بعينى ودود، حتى أن عفاف بدأت تنقل عينيها بينهما فى دهشة.. وأصرت على أن تجلسه ثم تركتهما وحدهما ودخلت لتأمر باعداد الشاى.. وقال لها بسرعة :

ـ سأنتظرك عند باب العمارة بعد نصف ساعة.

ثم قام واقفا واتجه إلى باب الشقة وفتحه بنفسه وهو يقول:

ـ اعتذرى لزوجة أبيك.. لن استطيع أن ابقى للشاى.. واغلق الباب وراءه دون ان ينتظر منها كلمة

وعندما أبلغت زوجة أبيها اعتذاره قالت ساخرة

ـ هكذا كل رجالكم.. تغلبهم أنانية الأسياد.. إنه لم يكلف نفسه حتى أن ينتظر ليستأذننى ويودعنى.

وضحكت ودود ضحكة مفتعلة ثم قالت وهى تحاول أن تبدو طبيعية :

ـ فيفى.. «هكذا تعودت أن تناديها».. سأخرج وأذهب إلى الدكان الذى اتفقنا معه على تعديل الفستان.

وقالت فيفى بلا تكلف :

ـ لنخرج.

وقالت ودود بسرعة :

ـ.. سأخرج وحدى.. إنه دكان قريب ولن أغيب ولا أريد أن أتعبك.. لقد اتفقنا هذا الصباح إلا نخرج قبل أن أتذكر حكاية هذا الدكان.. فابق أنت.

وعلت الدهشة عينى عفاف ثم ابتسمت ابتسامة ذات معنى كأنها فهمت وشدت ودود إليها وقبلتها وهى تقول :

ـ أخرجى وحدك يا حبيبتى.

وخرجت ودود إليه.. وكان ينتظرها فى سيارة أمام الباب.. إنها سيارة تبهرها أيضا. إن ذوقه فى اختيار السيارات لا يعلى عليه، وهو نفسه الذى يقود السيارة. إنه يعرف لندن جيدا وتردد عليها مرات، بل أنه تلقى فيها بعض دروس الطيران بجانب دراسته التى بدأها فى أمريكا.. وقاد السيارة وهى

بجانبه إلى حدائق بعيدة ليست حدائق هايد بارك.. وهى لا تخاف وهى بجانبه.. إنها ليست فى بلدها حيث كانت تضطر أن تلقاه فى الليل بعد أن ينام أهلها وتحت أشجار النخيل التى تتستر عليهما وتخفيهما حتى عن القمر.. إنها فى لندن.. جنة الحرية.. وقال لها وهو يقود سيارته :

- كيف جئت إلى لندن دون أن أعرف ودون ابلاغى؟

وغطست فى مقعد السيارة وقالت فى صوت حزين :

- كنت أهرب.

وقال فى دهشة :

- تهربين من ماذا ؟

قالت وهى تصر على كلماتها كأنها تنطق بالحق :

- كنت أهرب منك.

قال فى دهشة :

- لماذا تهربين منى؟

وقالت كأنها تتكلم من خلال دموع :

- إنى تأكدت من أن لا أمل ولا مصير.

وسكتت برهة وهو يركن السيارة إلى جانب رصيف شارع مزدحم واستدار إليها ومال عليها قائلا :

- إن الأمل هو أن نعيش حبنا.. إنى أحبك.. وقد كدت أجن عندما غبت عنى ولا أدرى ماذا كان يمكن أن يؤدى إليه جنونى.. والمصير هو أن يبقى لنا لقاؤنا.. لقاؤنا وحدنا فى دنيانا.

ودون أن تدرى مال عيها أكثر واحتضنها بذراعه وقبلها على شفتيها.. قبلته التى تأخذها ولا تستطيع حتى اليوم أن تنسى طعمها.. واستسلمت كلها لقبلته.. إنهم فى لندن يتبادلون

القبلات فى الشارع وأمام كل الناس حتى هذه القبلات.. لا أحد من الناس له شأن بالآخر، وما هى القبلة؟ إنها مجرد لقاء.. لقاء اليد باليد.. أو العين بالعين.. وإن كان لقاء تتولاه الشفاه.

وعاد يقود سيارته وكأنه اطمأن إلى أنه أعاد إلى سطوته.. سطوة الحب.. وقد سألته خلال الطريق :

- ماذا كنت تريد من أبى؟

وقال بلا مبالاه :

- لا شىء.. إنما هو أبوك.. كما كنت أسعى للقاء أخيك لمجرد أنه أخوك.

وسكتت منكسرة.

وعاشا ساعات فى الحديقة البعيدة بين أحاديث لا تنتهى وقبلات لا تنتهى أيضا ولم تف بوعدها لزوجة أبيها بألا تتأخر فقد تناولت معه طعام الغداء فى المطعم الأنيق داخل الحديقة.. أول مرة تراه يأكل؟ كيف يختار ما يأكله؟ وكيف يمضغ ما يختاره؟ كانت تنظر إليه وهو يأكل كأنها تمتع نفسها بمشهد جديد، وعندما أعادها إلى البيت لم تلمها عفاف على تأخرها ولم تسألها أين كانت وإن كانت تنظر إليها كأنها تريدها أن تبدأ هى وتقول أين كانت.

وقد أصبحت تلقى عبدالرحمن كل يوم وعفاف ساكتة تبيح لها الخروج وحدها.. تبيح لها الهروب من أبيها، وقد بدأت ترى لندن أجمل وتحس بها كأمتع بلد فى العالم.. وقد وصلت مع عبدالرحمن إلى أن دخلت معه فى الجناح الذى يقيم فيه فى لندن.. ولكن لا شىء سوى القبلات.. إنها حريصة على رضاء الله عنها.. وهى ليست زوجته ولا تقبل أن تكون أمته أو ملكا ليمينه أى جارية من جواريه.. ورضاء الله لا يهتز إلا عند

النهاية ولا يصب نقمته وغضبه إلا بعد النهاية أما عند المقدمات فالله غفور رحيم.. هكذا تؤمن ودود وربما كان ما تؤمن به كل بنات الجيل الجديد.. كلنا نردد فيما بيننا مثل هذا الكلام.

ولم يكن قد مضى على لقائها بعبدالرحمن فى لندن سوى أيام عندما جلست إليها زوجة أبيها بعد أن عادت إلى البيت وقبلتها قبلات أكثر حنية وقالت لها :

ـ لقد سأل أبوك عن عبدالرحمن فى الفندق ولم يجده.. قال لى بعد أن سألته رغم أنك تعلمين أنه ليس من حقى سؤاله عن أى شىء.. ولكنى تجرأت على سؤاله حتى أطمئن عليك.. وقد أفاض أبوك فى مديح عبدالرحمن حتى أنه تباهى بأنه زاره وسأل عنه.

وقالت ودود وقد بدأ الحرج ينتابها :

ـ مم تريدين الاطمئنان علىّ ؟.

وأمسكت عفاف بيد ودود تربت عليها فى حنان قائلة :

ـ ودود.. إنى لست عبيطة ولا مغفلة.. ونحن صديقتان تفهم إحدانا الأخرى ومتأكدة أننا لن نختلف أبدا مهما فعلت أنا وفعلت أنت.. ومنذ جاء عبدالرحمن وقد تغيرت كل أحوالك وتأكدت أنه لابد أن يكون بينكما شىء.. إنى مؤمنة بأن الزواج.. زواج هذه الأيام لا يمكن أن يتم لأن العريس سمع عن العروس أو رآها إنما لابد أن يعرفها وتعرفه.. كل المعرفة.. إن أباك لم يتزوجنى ولم أرض بزواجه لأنه سمع عنى ورآنى من بعيد أو كان صديقا لأبى.. تزوجنا لأن كل منا عرف الآخر.. عرف كله.. هل اتفقت أنت وعبدالرحمن على الزواج؟

وأرخت ودود عينيها وقالت كأنها استسلمت بكل أسرارها لزوجة أبيها :

ـ لقد تعارفنا منذ زمن طويل ولكنه لم يفاتحنى فى الزواج.

ونظرت إليها عفاف فى جزع وقالت كأنها تؤنبها :

ـ ولماذا لم تفاتحيه أنت حتى تطمئنى على مصيرك معه ؟

ونظرت إليها ودود وكأنها ثارت :

ـ كيف أفاتحه؟ هل أشحذ منه الزواج؟ إنه مهما كان فأنا أغلى منه ولا أشحذ منه ولكن آمن عليه.. آمن عليه بالزواج.

وصاحت عفاف ناهرة :

ـ إن الرجل لا يفكر فى الزواج إلا محتاجا أو مضطرا.. لا يفكر فى الزواج أبدا مادامت المرأة التى يريدها بين يديه بلا زواج.

وقالت ودود وهى تقوم نافرة :

ـ إنى لست بين يديه.. ودعينى الآن من فضلك.. إنى متعبة.

وتركتها وأغلقت باب حجرتها على نفسها.

وقد استمرت تلتقى بعبد الرحمن كل يوم تقريبا ولكن كلمات زوجة أبيها لا تكف عن الطنين فى أذنيها.. لم يعد الحب قادرا على طرد الكلمات، وبدأت تعانى الخوف على مصيرها وتقضى ليالى طويلة وهى قلقة معذبة لا يرحمها النوم، ولم يكن قد مضى أكثر من عشرة أيام على لقائها بعبدالرحمن فى لندن، وكانت قد قضيت ليلة فى فراشها وأنهكتها فيها الحيرة والتردد.

وفى صباح اليوم التالى جلست فى انتظار أن يخرج أبوها من غرفته ويتناول الشاى كعادته.. وقالت له متملقة :

ـ أبى.. أريد أن أعود إلى البلد.. أوحشتنى أمى وأخوتى.. كأنى أريد الاطمئنان عليهم بعد أن غبت عنهم طويلاً.

وقال ضاحكا :

ـ هل شبعت من لندن :

وقالت صارخة :

ـ أبدا.. لا أحد يمكن أن يشبع من لندن وإنى سأعيش الأمل على أن تدعونى دائما إليك فى لندن.. بل إنى أريد أن أسافر لأفرح بفرحة أهلى عندما أعطيهم ما اشتريته لهم من لندن. وأتباهى أمامهم بأنى كنت فى لندن.. ومع أبى.

ونظر عدوان إلى زوجته وقال من خلال ابتسامة ساخرة :

ـ وأنت.. ألا تريدين الاطمئنان على أولادك.

وكأنهم ليسوا أولاده.

وقالت عفاف وكأنها هى أيضا تسخر منه :

ـ إننى طبعا فى شوق إليهم، مشغولة بهم وعليهم.. ولكنى لا أستطيع إغضابك من أجلهم ولا إغضابهم من أجلك.

وقال ضاحكا :

ـ لن أغضب.. سافرا أنتما الاثنان كل منكما إلى بلدها.

ولم يمض يومان حتى سافرت ودود عائدة إلى بلدها.. وقد سافرت معتمدة أيضا ألا تبلغ عبد الرحمن.. كأنها تريد أن تغيظه.. أن تنتقم منه.. ولعله جن لسفرها وذهب يسعى وراء أبيها.. وقد سافرت وهى مستعدة أن تقدم على أى شىء حتى الانتحار.

وسكتت نوف وأنفاسها تلهث من طول ما تكلمت.. واعتدلت فى جلستها كأنها تريد أن تستريح، وقال كأنه يستطيع أن يصبر لسماع بقية الحكاية :

ـ هل انتحرت ودود أم حاولت الانتحار ؟

وقبل أن ترد نوف دخلت صديقتها سميحة ونظرت إليها فى دهشة وأخذت تنقل عينيها بينها وبينه كأنها تتهمها وقالت كأنها تصرخ :

ـ إن شعرك مفرود.

وقالت نوف وهى تجمع شعرها بيديها وقد قامت واقفة :

ـ كدت أنساه.

ثم اقتربت من صديقتها لتساعدها فى جمع شعرها وشبكه بالدبابيس.. وقالت وشعرها لا يزال بين يديها :

ـ سأراك غدا.. إنى واثقة أنى أستطيع أن أراك غدا.. أو سمحت.

وقال فى رجاء :

ـ كنت أريد أن أطمئن.

وقالت وهى تخطو نحو الباب وتشد معها سميحة :

ـ هل تريد أن تعرف كيف انتحرت؟ تزوجت.

٦

جاءته نوف فى اليوم التالـى فى مكتبه بعد أن اتصلت بالتليـفـون وحددت مـوعـدا فى الساعـة الثالثـة بعد الظهـر.. أى حرمـته من طعـام الغداء حتى يبقى يقظانا لاستقبالها.. وجاءت كالعادة مع صـديقتـها سـميـحة.. أنـها لا تخـاف أن تخرج إلى الشـارع وحدها.. إنهـا فقط تستـعين بسمـيحة فى الـكذب على أهلها.. ولكن لمـاذا تصر علـى أن تدخل سمـيحـة مـعهـا إليه؟ لمـاذا لا تفـترق عنهـا عند باب العـمارة وتعـود إليـها هناك؟ لعلهـا تحـرص على أن تدخل بها لأنهـا تدخل بيت العـائلة وتريد أن تبعد الشبـهات عن انفرادها به.. كالمريضة التى تصـحب معها صديقتها عند ذهابهـا إلى الطبيب.. وهو لا يستريح عندما يرى سميحـة ولا يعتقد أن سميحة تكون سـعيدة بلقائه.. إنه يحس من نظراتها كأنهـا تعتبره منافسا لها فـى الاستيلاء على نوف لعلها تخشى أن يبـعد نوف عنها ويحرمها من استـغلالها لها. إنه يعرف كـثيرات مـثل سمـيحة مـتخصـصات فى اكتـساب السائحـات العربيات وصـحبتـهن إلى المحال التـجارية ولهن عمولة على كل مـا تشتريه السائحة.. وتجـمع كل منهن الكثير من العمولات التى يدفـعها أصحاب المحال عـلاوة على الكثير الذى يمكن أن تحصل عليه من السـائحة نفسها.. لعل سـميحة

تخافه أن يحرمها من رزقها.

وتركتهما سميحة ولاحظ أن نوف تبدو مجهدة.. متعبة.. ولاحظ أنها عقصت شعرها عقصة معقدة وشبكته بحلية كبيرة لعلها لن تفرده اليوم.. نسيت أنه يحب شعرها مفرودا أو لعلها ندمت لأنها فردته له.

وقال وهو يبتسم ابتسامة كبيرة كأنه يحاول أن يخفف عنها حتى يضمن أنها ستحكى له :

- أين قضيت ليلة أمس؟ لابد أنك سهرت سهرة صاخبة حتى الصباح.

وقالت وهى تتنهد وكأنها تزفر ما يتعبها :

- أبدا.. بقيت فى غرفتى وتركتهم ساهرين وحدهم فى الخارج.. لا أدرى أين ؟

وقال وهو يطل عليها بنظرة اشفاق :

- ولكنك تبدين مجهدة.. متعبة.

وقالت مع تنهيدة أخرى :

- ربما لأنى لم أنم طول الليل.. لم أستطع النوم.. الواقع أنى عندما أحكى لك الحكاية أعيش كلى فيها.. أعيش فى الماضى.. ومتاعب الماضى.. وبالأمس صحبنى الماضى حتى بعد أن تركتك وبقيت فيه طوال الليل.. وهو ماض أتعبنى وبقيت كلى فى متاعبه.. ولم أستطع النوم.

وقال فى لهجة الطبيب المعالج :

- سترتاحين وتنتصرين على الأرق بعد أن تجتازى الماضى كله.

وقالت فى دهشة :

- هل أرتاح لمجرد أنى أحكى لك؟

وقال وهو يربت عليها بابتسامته :

- إنك لا تحكين ولكنك تزفرين.. تزفرين كل السحب والغيوم التى تسيطر على أعصابك ونفسيتك.. كأنك تمطرين حتى تذوب هذه السحب والغيوم وتعود سماؤك صافية.. منيرة.. هادئة.. ولعل الماضى كان أقسى عليك يوم أمس لأنك وصلت فيه إلى أن صديقتك ودود عادت من لندن إلى بلدها وهى تفكر فى الانتحار.. إن ذكرى الانتحار ذكرى أليمة.

وابتسمت ابتسامة هادئة وهى تلقى بظهرها على مسند المقعد.. وكانت أول ابتسامة تلمع على شفتيها يومها.. وقالت :

- إنها لم تكن تفكر فى الانتحار بمعنى أن تموت.. قلت لك: إنها مؤمنة والله حرم علينا أن نختار الموت بأيدينا.. وهو وحده صاحب القدرة على فرض الموت كما أنه هو صاحب القدرة على فرض الحياة.. وأنا أتصور أن كل مخلوق تمر به لحظة يتمنى فيها الموت ولكن الله رحمنا فحرمنا أن نلبى هذه اللحظة ووعدنا باللحظة الأخرى التى نتمنى فيها الحياة.. إنما كان تفكير ودود قد بدأ يدفعها إلى الاستسلام لكل ما يصادفها.. أن تنطلق إلى حد الجنون دون أن تحكم عقلها ولا حتى قلبها فيما يصادفها.. يكفى أن تغامر وتجرب.. تجرب الجديد.. حتى لو كان الجديد أقرب إلى الانتحار.. كل ذلك حتى تتخلص من عبدالرحمن ومن حبها لعبدالرحمن.. وكان من بين ما انطلق إليه فكرها هو الزواج.. أى زواج.. وكانت قد وصلت إلى سن السادسة عشرة من عمرها.. أى أنها فى عرف بلدها شاخت على الزواج.. فأخواتها تزوجن وهن فى سن الرابعة عشرة والثالثة عشرة.. وصديقتها رباب تزوجت وهى فى الثانية عشرة.. وهى نفسها لم تكف عنها عروض الزواج منذ

بداية نضجها ولكنها كانت انسانة أخرى غير بقية أخوتها.. إنها ترفض الزواج.. وتتغندر وتتكبر ربما لأنها كانت تمتاز عنهن فى تحرر فكرها وأبعدهن فى خيالها الذى تتصور به دنياها والدنيا كلها.. وكان إدمانها القراءة يدفعها إلى أن تعيش متسائلة عن كل ما يحيط بها أو يخطر على حياتها.. لماذا تتزوج البنات بمجرد أن يبلغن؟ يكفى أن تبلغ البنت ويفيض منها الحيض حتى تتزوج.. لماذا ؟ لأن هذا المجتمع يعتبر كل البنات كما كان أبوها يعتبر أمها.. مجرد إناء تسكب فيه البذور لانجاب العيال.. دون أن يعترف الناس بأن البنت مخلوقة من حقها أن تستكمل بناء نفسهاوتعيش شبابها وتربى شخصيتها وطبيعتها قبل أن تقدم على أن تكون أما.. إن أولادها أنفسهم لا يعتبرونها أما.. إنها مجرد إناء كان يرضعهم فى الصغر.. ومجرد خزين يمدهم بالأكل والشرب وما يحتاجون إليه كلما كبروا.. ليس عندنا ولد يعتبر أمه صاحبة فكرة أو صاحبة رأى.. إن الفكر والرؤى من اختصاص الرجال.. والبنات أنفسهن نشأن وهن خاضعات لما فرضه عليهن المجتمع.. مجرد آنية تستعمل مع الزواج.. لذلك يعشن وهن فى انتظار الزواج.. ويفرحن به.. يفرحن بالزواج لا بالزوج.. فليس فى عقولهن شىء آخر ينتظرنه سوى الزواج والانجاب.. هكذا كانت تفكر ودود.. وكانت تتحدى ما يفرضه عليها مجتمعها.. إنها تريد أن تعيش حياتها.. تعيش الدنيا.. تعيش ما قرأته.. واستطاعت بغرورها وعنادها وأيضا بذكائها أن تفلت من الزواج حتى سن السادسة عشرة.. ولعلها كانت تستطيع أن تستمر دون زواج حتى سن العشرين حتى تشبع من متعة الانطلاق الحر.. ولعلها منذ سقطت عيناها على عبدالرحمن

وهى لم تعد تتصور أن فى الدنيا رجلا آخر يمكن أن يكون زوجها.. ولكن عبدالرحمن هو الذى قلب فكرها وجعلها تؤمن أن الزواج هو المصير سواء امتزج بالحب أو بلا حب.. وعبدالرحمن ضن عليها بمصيرها.

وتنهدت نوف دون أن تنظر إليه وصمتت برهة ومدت يدها والتقطت كوب الشاى الذى كان قد طلبه لها ورشفت رشفة واحدة ثم تركته وعادت تقول من خلال ابتسامة كأنها تقطر بالحسرة :

- عادت ودود إلى بلدها وحاولت أن تعيش أياما فى فرحة أهلها وصديقاتها بالهدايا التى حملتها إليهم وإن كانت كل الفساتين التى حملتها إليهن لم يتسق فستان منها على من حملته إليها.. هذا أضيق.. هذا أوسع.. هذا أطول.. وانشغلت فى ضحكاتها وهى تبدل هذه بتلك دون جدوى وتعلمت ألا تحمل مرة ثانية هدايا من الفساتين.. تكفى الأقمشة.. فالفستان لا يصلح إلا إذا اشترته من ترتديه.. ولكن كل هذه الضجة التى أحاطت بعودتها واستقبالها وكل هذه الأحاديث التى لم تكف عنها وهى تروى عما شاهدته فى لندن وعن أبيها.. وإن كانت لم تذكر شيئا عن عفاف زوجة أبيها.. أنها تتمنى أن تنساها. لقد أصبحت شاهدة على فشلها مع عبدالرحمن.. فشلها فى الحب.. رغم كل هذه الضجة كانت لا تكاد تخلو إلى نفسها حتى تبدأ معاناتها وتبدأ فى تصور الجديد الذى يمكنها أن تلجأ إليه حتى يخفف عنها ما تعانيه.

وفى اليوم التالى جاءت إليها عمتها نوارة.. وهى العمة الكبيرة التى كانت زوجها قد دفعها إلى مقاضاة عمتها أمام المحاكم طلبا للإرث من أبيها.. وخاصمتها الجدة كما قلت لك

وحرمت عليها رؤياها أربعين عاما إلى أن ماتت.. جاءت عمتها نوارة وبعد أحاديث الترحاب والكلام عن أبيها.. شدتها بعيدا وبدأت تهمس فى أذنيها.. لقد جاءت إليها بعريس.. وهو رجل معروف جدا فى البلد ومن أغنى أغنيائها.. ولكنه رجل كبير.. عجوز.. هل تدرى كم الفارق بينه وبين ودود؟ الفارق أربعون عاما على الأقل.. وهى فى السادسة عشرة وهو قد شارف على الستين إن لم يكن أكبر.. وعمتها تلومها على ذكر فارق السن.. إن الرجل من سن العاشرة حتى سن المائة هو رجل.. لا فارق بين ما يطلبه الصغير والكبير.. ثم إن العادة جرت أن يطلب الكبير امرأة صغيرة.. وكلما كبر كلما طلب فتاة أصغر.. هذه هى سنة الطبيعة.. طبيعة الرجل وطبيعة المرأة.. وهذا ما يحدث فى بلدنا.. المهم هو قيمة هذا الرجل.. وهذا العريس هو أقيم رجل فى البلد.

وابتسمت نوف كأنها تغرى نفسها بابتسامتها واستطردت قائلة :

- وفى نفس الجلسة قبلت ودود الزواج.. ربما جاءتها عمتها بهذا الزوج لأن من المعروف عنها وعن زوجها أنهما يتقربان إلى شخصيات البلد ويتعاملان معهم نظير ما يأخذان.. لعلها تبيعها لهذا الرجل بالثمن.. ولم تفكر ودود فى أن المعروف عن هذا الرجل أنه يتزوج كثيرا.. ربما ستكون هى الزوجة العاشرة أو العشرين.. لا يهم.. هذا حال البلد.. المهم أنها تريد أن تجرب الجديد.. وهذا الجديد لابد أنه سيعطيها تجربة غريبة لم تخطر على بالها.. أن تتزوج رجلا عجوزا وتغامر معه بشبابها.. ولا تسألنى عن اسمه.. إنه معروف جدا وقد تعرفه.. ونطلق عليه اسم عوف.. لعلها تستطيع أن تفرض شخصيتها

على عوف وتسيطر على كل نفوذه ومكانته وثرائه كما كانت جدتها تفرض نفسها على زوجها الكبير عبدالله الطواش.. لتجرب هذه التجربة المثيرة.. ولم يكن هناك حاجة لاستئذان أبيها أو حتى ابلاغه بهذا الزواج فقد ترك المسئولية كلها على الأعمام والأخوال وكل أخوتها تزوجن ولا يدرى ولا يقول رأيا إنما يعلم بالزواج ضمن أخبار العائلة التى تصله من حين إلى حين.. ربما لو كان أبوها بجانبها وكان يتحمل مسئولية رعايتها لأشفق عليها من هذا الزواج وحرمه عليها مهما كانت قيمة الزوج فهم أغنياء وليسوا فى حاجة حتى يبيعوا بنتهم التى فى السادسة عشرة إلى زوج فى الستين.. ولكن هذه أوهام فإن عفاف زوجة أبيها تصغره ربما بثلاثين عاما. إنه رغم حياته التى قضاها كلها خارج البلد ورغم ما هو معروف عن ثقافته وذكائه لم يتغير فى طبيعته.. طبيعة أهل البلد.. الرجل العجوز يريد زوجة صغيرة.. وقد وافق الأعمام والأخوال فورا على هذا الزواج.. وفرحت العائلة كلها.. إنه زواج يشرف العائلة كلها.. وجاء عوف لزيارة العائلة بعد أيام طويلة.. أسبوع.. أو أسبوعين.. واستقبله رجال العائلة فى المبنى الكبير الذى تتم فيه كل الاستقبالات منذ أيام جدها.. ودخلت إليه ودود بصحبة أمها وبعض عماتها وأخواتها وجلسن فى جانب منفصل عن جانب الرجال ثم جاء إليها عمها وصحبها إلى حيث يجلس عوف كأنه يهم بأن يعرض عليه البضاعة قبل أن يشتريها.. وقام عوف يصافحها وعيناه تيحلقان فيها كلها كأنه يحقق فى البضاعة ويضغط على يدها التى تصافحه بها كأنه يحاول أن يكتشف نوع القماش الذى يشتريه، ولم تكن ودود خجولة ولا مترددة فصافحته

بشخصية كاملة قوية كأنها الشخصية إلى قررت أن تفرضها عليه.. وقد لاحظت أنه رغم عينيه البراقتين المملوءتين بالحياة ورغم جلده المشدود على وجهه حتى لا يبدو عليه أثر للتجاعيد وكأنه يداوم اجراء عمليات شد الجلد.. رغم ذلك فقد احست به كأنه ضعيف منهوك.. قام لها كأنه يرتكز على نفسه حتى يستطيع أن يتحرك ويقوم واقفا، وصوته الذى حياها به صوت خافت أجش كأنه يستعين بأنفاسه ليشد كلماته.. ولا يهم إذا كان وسيما أو ليس بوسيم.. هذا لم يخطر على بالها.. لقد قررت أن تتزوجه وهى لا تعرف شكله وكانت مصممة على الزواج مهما كان شكله.

ولم تدم هذه الزيارة طويلا، وانصرف وهو يخطو خطوات مهتزة مستندا على عصاه بعد أن كان قد تم الاتفاق بينه وبين عمها على كل شىء.. لقد أعجبته البضاعة.. ووافق على الشراء أى على الزواج.. وقد عرفت أن عوف يقيم فى بيت خاص به وحده لا تشاركه فيه احدى الزوجات، وقد أقام لكل زوجة بيتا خاصا تعيش فيه هى وأولادها يتردد على كل منهن كما يريد وكما يختار.. وليس من حقه شرعا أن يجمع بين أكثر من أربع زوجات ولكن حتى المطلقات ترك كلا منهن هى وأولادها فى البيت الذى كان قد خصصه لها.. لم تبق زوجة له طول العمر إلا زوجته الأولى.. ربما راعى الحرص على الوفاء لماضيه منذ أيام بدايته.. ويقال إنها رغم أنها شاخت إلا أنها لا تزال صاحبة الكلمة المسموعة كأنها شريكته فى كل ما وصل إليه.. لعلها كجدتها زوجة جدها عبدالله الطواش.. شخصية قوية معتزة بأصلها.. أصل قبيلتها.. وبدأت ودود تحسب حساب هذه الزوجة العجوز.. إنها تتحداها ولن تكون أقوى منها..

ستكون كلمتها هى الأقوى، وكان عوف قد أبلغهم أنه خصص بيت العروس الجديدة وترك لهم حرية اعداد هذا البيت وتجهيزه كما يريدون.

وكانت الموضة قد بدأت تظهر فى تلك الأيام على أن تجهز البيوت من الخارج، وخاصة من ايطاليا. إن البلد كلها بدأت ترفض أن تقبل ما بين يديها وما تحت أقدامها.. كل شىء يجب أن يستورد من الخارج، وصممت ودود على أن تسافر إلى ايطاليا تشترى جهاز بيتها كبقية بنات العائلات، ولم يعترض أحد على رغبتها خصوصا أن الأموال مكدسة فى براميل البترول، وسافرت فعلاً إلى ميلانو فى ايطاليا ومعها عمها وابن عمها واختين من اخواتها ومعهم المندوب الذى يعمل عند عوف.. إنه هو المكلف بالانفاق ودفع الثمن، وقد بقيت فى ميلانو ثلاثة أسابيع.. كانت تقضى كل يوم فى الشراء.. لم تكن تدرى بالضبط ما تشتريه.. فالمهم هو متعة الشراء.. وتشترى.. وتشترى.. وفى كل مساء تصحب كل من معها إلى ناد ليلى يتفرجون.. لا يهم ما يتفرجون عليه.. ولكنها متعة الفرجة.. وتركت ميلانو بعد أن شبعت منها وكل قطع الأثاث علاوة على ما اشترته من كل شىء نقلت بالطائرات وسبقتها إلى بلدها.

وفى البلد تركت أهلها بمساعدة الخدم يفرشون البيت بما اشترته دون أن تهتم كثيرا بفرض ذوقها.. وكان موعد الزواج.. أى الزفاف.. قد تحدد.. وأصرت ودود على أن تقيم حفلا كبيرا فى المبنى الكبير.. إن كل أخواتها تزوجوا فى هذا المبنى.. وهى تريد أن تقيم حفلا أكبر من كل ما شهدته البلد.. ربما لم تكن تريد الحفل فى حد ذاته ولكنها كانت تحس أنها

تريد أن تغيظ عبدالرحمن.. إنها لا تستطيع أن تنكر أنها لا تزال تحبه رغم أنه لم يتبعها إلى البلد كما كانت تتمنى ولم يحاول الاتصال بها ولا حتى باخيها كما عودها أن يتصل به كلما أعجزه الاتصال بها.. إنها تحب عبدالرحمن إلى حد لا تستطيع أن تغيظه وتثبت له أنه تزوجت من هو أفضل منه.. من ناحية القيمة على الأقل.. وأقيم الحفل فعلا رغم عدم رضاء زوجها عوف، ودعى إليه كل أفراد القبيلة رجالا ونساء وكل من يدق على الطبل وينفخ فى الناى ويطلق أغنية. كل أهل البلد عاشوا ليلة لا ينسونها.. ولكن زوجها عوف لم يتحمل البقاء فى الحفل طويلا.. لم تنقض ساعات من أول الليل حتى قام منصرفا وطلب أن تلحق به زوجته فى البيت الذى أعده لها. وكان يجب أن تلحق به حالا.. فتركت الحفل يستمر حتى الصباح وحملتها أمها وأحد أبناء عمومتها إليه.. وتركوها له كانهم يلقون بها فى البحر.. وكان جالسا فى البهو مع بعض رجاله يستريح من ضجة الحفل فسبقته إلى غرفة النوم.. ولم تكن خجولة ولا على خفر ولا فى روعة ما ينتظرها لأول مرة على هذا الفراش الذى أمامها.. فراش الحدث الأكبر.. وأخذت تخلع ما على رأسها من ثوب العرس فى هدوء.. ثم فتحت الدولاب ففوجئت بأن وجدت فوق سطحه عشرات الزجاجات.. لقد جاءت هذه الزجاجات فى الصباح دون أن تراها.. لاشك انها زجاجات تلحق به أينما يقضى الليل.. واقتربت منها تدقق فيها.. إنها زجاجات تبذر فى داخل الرجل بذور القوة.. قوة الرجولة.. تعينه عى استرداد قدرته على أخذ المرأة.. على تاكيد فحولته. وزجاجات أخرى للتهدئة.. وزجاجات للنوم.. وزجاجات.. فهى تذكر أنها رأت بعض هذه الزجاجات بجوار

فراش أبيها عندما كانت عنده فى لندن.. ورغم أن أباها لاشك يصغر زوجها ببضع سنوات إلا أنه يبدو أن الرجل بعد أن يصل إلى سن معين لا يستطيع أن يظل رجلا كاملا إلا إذا استعان بهذه الزجاجات.

ودخل عليها زوجها وكان قد خلع ثيابه ووضع ثوب النوم وقال لها مبتسما فى بساطة وهو يرقد على الفراش :

ـ اخلعى.. وتعال.

ونظرت إليه فى لوم.. كانت تنتظر ربما بتأثير ما قرأته فى القصص أن يقوم هو إليها وتترك له متعة أن يخلع عنها ثوبها ويخلع كل ما يريد أن يخلعه.. ولكنها لا تعيش فى قصة.. وبسرعة فتحت الباب إلى الغرفة الملاصقة حيث تنتظرها خادمتها الخاصة وتركتها تخلع عنها ثوبها وتضع لها ثياب النوم وعادت إليه وهى تدعى الخفر.. خفر العروس.. ووقفت كانها لا تستطيع أن تقدم على الاقتراب من الفراش إلى أن مد يده ضاحكا وجذبها وأرقدها بجانبه، وبدأ يحاول، ولكنه يبدو كانه يفتعل محاولته ولا تحس منه إلا بثقل أصابعه وهى تتحسس جسدها، وحاول حتى أنه هم فى عصبية أن يمزق ثوبها.. ثوب النوم.. فساعدته بأن خلعته عن جسدها.. ثم عاد يحاول.. ثم قفز من الفراش إلى الزجاجات المرصوصة وفتح زجاجة وألقى فى جوفه حبة ثم عاد إليها يحاول.. ثم وجدته قد ارتخى وكانه استسلم ليأسه وغفا.. نام.

وفى الليلة الثانية.. والثالثة.. أنه لا يكف عن المحاولة ولا يستطيع أن يصل إلى ما تزوجها من أجله وهى صابرة محتملة بل تحاول أن تخفف عنه كلما كف عن المحاولة فتفتح معه الحديث.. عن أى شىء.. كما أنها لم تكن تقول شيئا أو

تشكو لأهلها عندما يزورونها فى الصباح.. فإذا أرادت أحداهن أن تطمئن.. ادعت الخفر.. وقالت ضاحكة: لن أقول.. هذا سرى ولن تعرفوه وموتوا بغيظكم.

وفى اليوم الرابع تركها إلى بيته الخاص وهى لا تدرى متى يعود إليها ولا فى أى بيت آخر من بيوت زوجاته الأخريات يقضى لياليه.. إلى أن جاءها خادمه بعد أربعة أيام يحمل بعض احتياجاته فعلمت أنه سيقضى الليل معها، وأعدت له كل ما يؤكد اهتمامها به بل فكرت فى الأحاديث التى ستتبادلها معه.. ولا شك أنه يعزها وكان فرحا بزواجه بها وكان سعيدا بالساعات التى يقضيها معها ويتناولان خلالهما طعام العشاء خصوصا أنها كانت قد حفظت ما يطيق أكله وما لا يطيق فلم تعرضه لشىء لا يريده أو شىء يضر بصحته.. إلى أن جاءت الساعة.. وبدأ يحاول ولا يستطيع.. يبدو أن الأدوية القوية التى تعيد الشباب لم تعد تجدى معه.. أو أنها تجدى مع امرأة ولا تجدى مع أخرى.. ولعل اليأس قد اشتد به ليلتها فدب أصابعه فى داخلها كأنه ينتقم منها أو ينتقم من عجزه أو يتحدى إرادة الله.. وصرخت ألما.. ولكنها مع نكبتها عذرته.. ربما أراد أن يصل على الأقل إلى أن الفتاة التى تزوجها لم تعد عذراء أو ربما أراد أن يمارس حقه فلا يتركها إلا بعد أن يفض بكارتها.. وأصبحت امرأة.. هكذا أصبحت امرأة.

واستمر هذا الحال عاما أو أكثر قليلا. وهى صابرة.. ربما كانت تخجل من فشلها.. فشلت فى الحب وفشلت فى الزواج. وكان يعوضها عن فشلها أنها لم يكن ينقصها شىء مما تريده.. لا ينقصها شىء تشتريه.. وقد هوت أيامها شراء المجوهرات.. تشترى وزوجها يدفع دون اعتراض ولا حتى

يهمه أن يعرف ما تشتريه.. إن لديها من المجوهرات ما يساوى الملايين. ربما كان الشىء الوحيد الذى أرادته ولم يتحقق هو أنها حاولت أن تقنع عوف بالسفر إلى لندن لرؤية أبيها.. ولكنه رفض.. وهى لم تنس أبدا أباها عدوان.. كانت تكتب له الرسائل دون أن تنتظر منه ردا كما هى العادة، ولكنها تكتب لأنها تحب أن تجلس وتكتب كما تحب أن تقرأ. إن الكتابة والقراءة هما أشد ما يأخذانها من فراغها ويشد من يومها وليلها الساعات، وكانت تكتب لأبيها أى كلام دون أن تقول له شيئا مما تعانيه ولا عن فشلها فى اختيار زوجها.. بالعكس.. أنها تمجد فى زوجها كلما كتبت له.. إلى أن مرض هذا الزوج.. مرض مرضا سمعنا أنه مرض خطير وقد عاش مرضه فى بيته الخاص واستدعى إليه زوجته الأولى وحدها. هى التى تراعيه فى مرضه.. كأنه لم يتزوج غيرها وكل من بعدها مجرد آنية يسكب فيها بذوره إلى أن سكبها كلها ولم يستطع أن يسكب المزيد فى الإناء الأخير.. زوجته ودود.. واشتد به المرض حتى أوصى الأطباء بأن يسافر إلى لندن لاستكمال العلاج.. ولم تسافر معه إلا زوجته الأولى.. كان يستطيع أن يصحب كل زوجاته بل كل أولاده.. كثير من العائلات عندنا تسافر كلها ولو زاد عدد الأفراد على مائة، ولكن عوف لا يريد.. كأنه فى أواخر أيامه كان نادما على أنه أدخل فى حياته كل هؤلاء، ولم ينقض شهر حتى عاد وهو راقد على نقالة.. نصحه الأطباء بأن يعود حتى يموت فى بلده.. وقد مات.. بعد عام ونصف فقط من زواجه بودود.. وربما حمدت الله على موته.. وإن لم تفقد الاحساس بأنه زوجها الذى مات.

●●●

وسكتت نوف وهى تتنهد فى راحة وقد انفرج وجهها واختفت منه آثار الجهد والتعب كأنها زفرت كل السحب والغيوم التى كانت متلبدة فى صدرها.. واعتدلت فى جلستها وقالت وهى تبتسم ابتسامة حلوة رائقة :

ـ ما ذنبك أنت وكل هذه الحكايات ؟

وقال ضاحكا :

ـ إنى أحس كانك تهدين لى هدية.. أكملى هديتك وأحكى..

وقالت وهى تكسوه بنظرات عينيها :

ـ كفى اليوم لنتحدث فى شيء آخر..

وقال من خلال صوته المرح :

ـ أنا عندى الكثير الذى أريد أن نتحدث فيه.. قد لا تعلمين أنى غاضب وساعلن ثورتى عليك.. ولكنى لن أقول لك ما أنا غاضب منه إلا بعد أن أسمع مزيدا من الحكاية.

قالت من خلال ابتسامتها الحلوة ووجهها يقترب منه أكثر :

ـ الآن لن أستطيع أن أتكلم إلا إذا عرفت سبب غضبك منى..

قال بسرعة وهو يمد يده فوق يدها :

ـ بالعكس إن الحكاية تنسيك وتنسينى أنى غاضب.. قولى لى.. ماذا حدث بعد أن مات زوجك أقصد زوج صديقتك ودود ؟

ونظرت إليه كأنها تعذره لأن من حقه أن يصر على سماع الحكاية كلها، ثم سحبت يدها من تحت يده وهى تنظر إليه نظرة أخرى كأنها تستميحه فى سحب يدها وعادت وألقت بظهرها على المسند بعد أن شدت تنهيدة عميقة من صدرها :

ـ إنها فى اللحظة التى سمعت فيها بموت زوجها انطلقت تفكر فى نفسها لا فيه.. إنها قد تحررت.. منتهى الحرية..

لم تعد فى حاجة إلى أهلها.. فثراؤها وماتركه عن زوجها لن يتركها أبدا محتاجة إلى أحد.. وهى الآن تحمل لقب زوجة حتى لو كانت أرملة والزوجات والأرامل أكثر حرية من البنات.. وهى لا تدرى حتى اليوم كم ورثت من زوجها فأعمامها تولوا كل ما يخصها وكانت توقع على الأوراق التى يقدمونها إليها دون أن تقرأ ما فيها، ولكنها غنية.. غنية جدا.. وتستطيع أن تقضى كل حياتها فى الخارج.. فى أوربا.. فى لندن.. كما فعل أبوها بعد أن ورث عن أبيه.. ولكن كان قد دخل حياتها خالد، وهو من عائلة المرحوم زوجها.. فى عمر أحفاده.. فهو لا يزال شابا لا يكبرها إلا ببضع سنوات.. وكان يتردد عليها بعد الزواج ويقوم بتلبية بعض مطالبها العائلية.. وكانت تلحظ انبهاره بها وتعمده أن يقترب منها أكثر وألا يغيب عنها طويلا.. وهو لا شك وسيم وهو أيضا متفتح العقل.. لقد كان يحدثها طويلا عن رحلاته فى الخارج وعن مغامراته.. وكان يسخط على كل ما فى بلده من تقاليد ومن نفاق اجتماعى.. كفاكم نفاقا.. اظهروا على حقيقتكم.. كنا نتكلم هذا الكلام كثيرا، ونضحك ويجمعنا المرح، وبعد أن مرض زوجى أقصد زوج ودود ثم سافر للعلاج فى لندن أصبح خالد يتردد عليها أكثر.. وتردده لم يكن يثير الشبهات.. فهو قريب زوجها ويتولى أمرها نيابة عن الزوج، وهو نفسه لم يكن يتجرأ على محاولة شدها إليه، بل لم يصارحها بحبه ولا بتعلقه بها، ولم يكن يمد يده عليها ولو بلمسة.. رغم أنك تعلم طبيعة الرجال إذا انفردوا بامرأة حتى لو كانت زوجة.. أو حتى زوجة قريب.. إلى أن مات عوف.. فبذل خالد مجهودا فى مراعاتها واشترك مع أعمامها فى توفير كل حقوقها من الإرث ..

ولم يكن قد مضى ثلاثة شهور على الوفاة عندما صارحها.. لماذا لا نتزوج؟ ولم تفاجأ.. أنها كانت تحس من زمان أنه يكاد يذوب حاجة إليها.. إلى أن تكون له، وهى لا تستطيع أن تقول أنها تحبه حبها الذى كان لعبدالرحمن.. بل أنه لم يستطع أن يمحو احساسها بعبد الرحمن وذكرياتها له، ولكنها ترتاح إليه ولا تمل جلستها معه مهما طالت.. بل أنها تحس كأنهما يعيشان بعقلية واحدة وآراء واحدة وانطلاق واحد، ولكنه متزوج.. لماذا لا تجد رجلا لها هى وحدها؟ إن طبيعتها التى تتميز بها عن كل بنات البلد كانت تدفعها دائما إلى الثورة على حق الرجال فى جميع النساء كما يجمعون آنية المطبخ لطبخ العيال.. وقد سبق وتزوجت عوف لأنها كانت تفكر فى الانتحار أما الان فهى لا تفكر فى الانتحار فلماذا تتزوج رجلا يجمع بينها وبين زوجات أخريات؟ إنها تعرف حكاية لعلك سبق أن سجلتها فى احدى قصصك ولو أنها ليست مجرد قصة إنها حكاية واقعية.. فقد كان أحد رجالنا قد تزوج اثنتى عشرة مرة ثم وقع فى حب امرأة لبنانية وأراد أن يتزوجها، وكانت اللبنانية تريده.. على الأقل تريد ثراءه الذى يوفر لها الدنيا كلها.. فقالت له: لو تزوجتك فسأكون رقم الثالثة عشر بين زوجاتك ولكنى لو أصبحت عشيقتك فسأكون العشيقة الوحيدة.. وأفضل أن أكون وحدى.. وفعلا عاشت معه كعشيقة ولا تزال عشيقته ويغرقها فى كل ملايينه وهو لا يكف عن الحرص على الاحتفاظ بها والجرى وراءها.. إنه يجرى وراءها لانها ليست ملكه.. ليست زوجته.. إن العشيقات أقوى على الرجال من الزوجات.. ربما لو كان قد تزوجها لكان قد حفظها فى المخزن بين مجموعة الزوجات وتزوج عليها أخرى، وقد قالت لخالد :

- أريد رجلا يكون كله لى.. لا تشاركنى فيه واحدة.

وقال متوسلا :

- سأكون كلى لك.. لن يكون فى حياتى إلا أنت.

ولا تدرى كيف اقتنعت وتزوجته.. ولم يرحب أهلها بهذه الزيجة ولكنهم وافقوا على اعتبار أن زواجها ستر لها.. ستر لأى امرأة.. ولم تقم حفل زواج طبعا.. ويكفى أنها أرملة وأنها تحدت واجبها وتزوجت بعد خمسة شهور فقط من وفاة زوجها.. تزوجت فى صمت.. وبدأت حكاية جديدة.. إن حكاياتها لا تنتهى.

●●●

والتفتت نوف إليه ورأسها لا يزال مائلا على المسند وقالت:

- قل لى الآن لماذا أنت غاضب منى؟

قال مبتسما :

- ألا تعرفين.. ألم تبخلى علىّ بشىء؟

وقالت بعد أن حاولت أن تتذكر :

- صدقنى.. لا أعرف.. أنى لا يمكن أن أغضبك ولا أن أبخل عليك أبدا.. أنك لا تدرى كم أنا مرتاحة إليك.. بل محتاجة إليك.. أحس بنفسى كأنى أتغير إلى حالة أخرى منذ التقيت بك.

قال ضاحكا :

- ورغم ذلك نسيت.

قالت وعيناها متعلقتان بعينيه :

طمئنى.. ماذا نسيت ؟

قال وهو يملأ عينيه بشعرها المكوم فوق رأسها :

- نسيت أن تفردى شعرك.. إنى أحس بك أقرب إلىّ

وشـعرك مـفـرود.. كأن لا كلـفة بيننا.. ثـم أنى أحب شعـرك المفرود.

وأبعدت عنه وجهها وقالت وقد أرخت عينيها قائلة :

ـ لقد لامـتنى صديقتـى سميـحة أمس عندما رأت شـعرى مفـرودا.. وحذرتنى ممـا يمكن أن يقوله عنى السـفرجى الذى يخدمنـا.. ثم أن مكتبك فى بيت العـائلة.. ويجب علىّ أن أراعى العائلة.

وقال ضاحكا :

ـ إن المكتب فى بيت العائلة ولكن لا أحـد فى العائلة يحس أن مكتـبـى فى البـيت.. انى عنـدمـا أدخل إلى مكتـبى فكأنى خرجت من البيت.. هكذا تعودت العائلة كلها.. ولعلك لاحظت أن لا أحـد من أفـراد العـائلة سـأل عنا ولو من بـاب التـرحـيب بالضيف.. الترحيب بك.. ثم أن فرد الشـعر ليس فضيحة يمكن أن يتحـدث عنها الناس.. إن الـموضة هذه الأيام هـى أن يفرد البنات شعورهن حتى آخرها ويسرن بها فى الشارع.

وقالت وهى مبتـسمة وعيناها لا تزالان مرخيـتان فى خفر كأن فرد شعـرها بالنسبة لها عطاء كبيـر لا تعطيه إلا فى حالة الاستسلام لرجل :

ـ لم تصل هذه الموضـة إلى بلدنا.. إن كشف الشعـر عورة سواء كـان مفرودا أو مـعقـوصـا.. ولا تنس العبـاءة التى تلفنا كلمـا خرجنا من البـيت.. وربمـا لو كانت فى لندن لسـرت فى الشارع وشعرى مـفروود رغم أنى لست آنسة.. أنا زوجة وأم.. أمـا فى القـاهرة فـإنى لا اسـتطيـع أن أنسى بلدى ولا أحس بنفسى بعـيدة عنها كـل هذا البعد.. ورغم ذلك سـأحاول.. أنى لا أبخل عليك بشىء ولا أتحمل إغضابك.

ودخل السفـرجى يقود سمـيحة إليـهما.. ووقـفت لها نوف فورا.. وقال كانه يلحق بها قبل أن تفر :

ـ ألا تزالين زوجة لخالد.. أقصد صديقتك..

وقالت ضاحكة :

ـ إنها زوجة ولها حكاية..

وقالت صديقتها سميحة وهى تنقل عينيها بينهما :

ـ عم تتحدثان ؟

وقالت نوف من خلال ضحكتها الخافتة :

ـ حكاية.

ثم شدتهـا من ذراعها وخـرجت بها وابتسـامتهـا تملأ كل وجهها.

وهو ينظـر وراءها سـعـيـدا بهـا.. لقـد بدأت تـحس بحل مشكلتها لمـجرد أنها تحكى.. تزفر السحاب والضـباب المخيم عليها.

٧

ودهش عندما اتصلت به بالتليفون لتحدد لقاءها.. إنها تريد أن يلقاها فى الفندق.. الغرفة ٦١٢.. وفى الساعة التاسعة والنصف مساء.. إنها أول مرة يلقاها فى الليل.. ولا شك أن الليل يحيط اللقاء بمعان أخرى غير معانى لقاء النهار.. رغم أن كل ما يحدث فى الليل يمكن أن يحدث فى النهار.. ولكن الليل أكثر اغراء.. وقد حاول أن يثنيها عن قرارها ليكون لقاؤهما فى النهار أو يكون فى مكتبه.. ولكن مستحيل.. إنها لا تستطيع.. لقد أعدت كل شيء بالنسبة لأهلها لتحقيق هذا اللقاء.

ولم يدم تردده.. ذهب إليها والليل يحيطه باحساس لم يطرأ عليه من قبل.. أحساس كأنه مقدم على مغامرة أكبر.. وهو عندما كان فى شبابه لم يكن يفرق بين ليل ونهار، ولم يكن يحس باحساس المغامرة مهما غامر.. وكانت طبيعته ألا يتعمد ولا يفتعل ولا يخطط.. إنما هذه هى طبيعته.. ولكن لا شك أن طبيعته قد تغيرت بعد أن كبر وأصبح عجوزا.. أصبح كسولا فى اكتشاف الدنيا واكتشاف الإنسان.. ربما لأنه شبع بما اكتشفه.. وكسله جعله يتردد فى كل خطوة يخطوها ويطرأ عليه الإحساس بالمغامرة حتى ولو لم يكن فى أى خطوة مغامرة.. ربما وصل من العجز إلى حد أن أصبحت كل دقائق

الحياة مغامرات.. دقيقة بعد دقيقة.. لمجرد أن يعيش الحياة..

ودخل الفندق وهو أشد حرصا والرعشة فى داخله خوفا من أن يصادفه أحد يعرفه.. ماذا يمكن أن يقول وقد جاء فى هذه الساعة من الليل؟ لا يمكن أن يصدق أحد أنه جاء فى موعد عمل.. إلا إذا كان موعد على العشاء ولو أن من يعرفونه نسوا لياليه التى كان يدعى إليها.. وركب المصعد وهو يرخى عينيه حتى لا يرى أحدا.. ووقف على باب الغرفة يتلفت حوله قبل أن يمد أصبعه إلى الجرس.

وفتحت له الباب صديقتها سميحة.. ولكن عيناه لم تريا سميحة وسقطتا على نوف الواقفة قريبا.. وكأنه جن بعينيه من روعة ما يراه.. أن نوف تركت شعرها مفرودا على كتفيها.. ولا شك أنها تعمدت أن تفرده وقضت الساعات كى تفرده حتى جعلته أكثر جمالا.. وأكثر اثارة.. وأكثر اغراء.. وهى ترتدى ثوبا حريريا مطرزا بالذهب.. واسعا.. يتهفف فوق قوامها.. وصدرها مكشوف ويقف ثوبها عند نهديها كأنه يحدد المرور.. هنا ممنوع المرور.. وظهرها أيضا مكشوف وإن كان يحدد موقف العيون.. إلى هنا تقف عيناك ، ولكن لماذا يفاجأ وهو يراها فى هذا الثوب المتسامح الكريم.. إنه يعرف أنهن يرتدين أغلى وأجرأ الأزياء تحت العباءة.. إنها فقط لا تضع العباءة.

وسمع صديقتها تقول وهو ساهم سارح حتى عندما تبادل معهما كلمات التحية.. سمعها كأنه يسمعها من بعيد :

- إنى سأذهب إلى بيتنا وأخشى أن بقيت هناك حتى الساعة الحادية عشرة أن يمسكوا بى ويصروا على أن أنام هناك.. وإلا أستطيع العودة.

وقالت نوف وعيناها معلقتان به دون أن تنظر إلى صديقتها:

- عودى قبل أن يمسكوا بك..

وسمع الباب يغلق وراءه بعد أن خرجت سميحة ومد يده وتحسس شعر نوف المفرود وهو يقول مبتسما :

- شكرا.. إنك لم تنس هذه المرة.

وقالت فى خفر :

- إنى لم أعد أستطيع أن أنساك أبدا.

وعيناه تطوفان بصدرها المكشوف وظهرها العارى ولحم ذراعيها الذى يحس بهما كأنهما يقدمان له على طبق ليأكلهما.. ثم التفت فى نظرة سريعة إلى الفراش.. إنه يحس بأن مقاومته تضعف.. إنه يريدها.. يريد أن يمد ذراعيه ويحتضنها إلى صدره.. إنه لا يستطيع أن يكون مجرد طبيب لعلاج صاحبات المشاكل.. إنه رجل.. ولكن لماذا يلوم نفسه وهو يقاوم؟ لا.. إن الأطباء عادة لا يقاومون إنما يستجيبون فى بساطة إلى إغراء المريضة.. وقد سمع حكايات كثيرة عما يحدث داخل عيادات كبار الأطباء.. بل أنهم يعتبرون أحيانا أن ما يحدث هو نوع من العلاج للمريضة.. حتى إذا اعتبر نفسه استاذا فإن ما يسمعه مما يحدث بين الأساتذة الجامعيين والطالبات كثير.. فلماذا يعذب نفسه بكل هذا التردد؟ لماذا لا يحاول؟ وهى قطعا ستستجيب للمحاولة.. ولكنه عندما كان شابا لم يكن يتردد بل لم يكن يخطر على باله ما يدفعه إلى المقاومة.. كان إذا جمعه لقاء بامرأة لا يدفعه اللقاء إلا إلى اكتشاف هذه الشخصية التى التقى بها.. أسرار الدنيا وأسرار الناس.. ويترك نفسه مستسلما بلا تعمد إلى لحظات اللقاء.. قد تمر لحظة يجد المرأة

فيها بين يديه، وقد تمر كل اللحظات بلا شىء.. فلا يهتم ولا يريد شيئا.. ربما كان فى شبابه مغرورا بنفسه إلى حد أنه لم يكن يحس بحاجته إلى أى شىء.. إلى أى امرأة.. كل ما يصل إليه تسقطه اللحظة تحت قدميه.. ولكن الآن وبعد هذا العمر لم يعد ينتظر أن تجرى وراءه اللحظات إن لم يجر وراءها.. أصبح يحس أنه يغامر أو يقاوم المغامرة.

وسحب أصابعه من بين شعر نوف وألقى بنفسه فوق المقعد الذى تعود أن يخصص له.. ثم قال وهو يلهث مقاومته لنفسه :

ـ هل زوجك يشرب؟

وقالت وهى تنظر إليه فى دهشة :

ـ طبعا.. إنه كبقية الرجال.. لماذا تسأل ؟

وقال وهو يبتسم ابتسامة تقطر ضعفه :

ـ أردت أن أتأكد من أنك تعودت على الرجال الذين يشربون لأنى أريد أن أشرب.

واشتدت نظرة الدهشة فى عينيها ثم سرحت كأنها تبحث عن الوسيلة التى تستطيع بها أن تأتى إلى الحجرة بالمشروب وتقدمه له.. وقد كان يريد فعلا أن يشرب كأسا على أمل أن يقوى على المقاومة. مقاومة اغراء نوف.. ولكن لماذا يستسلم إلى هذا الاحساس؟ لماذا لا يعتز بنفسه كأستاذ تتعلق به كل هذه العقول ؟ خصوصا عقول الجيل الجديد.. كطبيب يلجأ إليه كل المعذبين نفسيا.. ثم ماذا يقاوم؟ لا شىء يقاوم.. إنه متأكد أنه يستطيع أن يأخذ من هذه المرأة ما يريد.. إنها ستلبى لا حبا فيه ولا لأنه أثار فيها أملها فى متعة إنما فقط ستلبى لتتفرج.. كل القارئات يردن أن يتفرجن على المشاهير.. كيف

يتحسس المرأة؟ ما طعم قبلته؟ كيف يأخذها؟ كأنهن يتفرجن على فيلم سينمائى من الأفلام الممنوعة.. وهو حر.. إنه يستطيع أن يدعوها للفرجة عليه ويستطيع أن يحرمها من الفرجة.. وهو يعتز بنفسه أن يكون فرجة كما كان يترك البنات فى شبابه يتفرجن عليه.. لا.. إنه أصبح أقوى وأغلى من أن يترك نفسه لامرأة تتفرج عليه كمشهد سينمائى.. وقال لها فى حدة :

ـ لا.. لا أريد أن أشرب.

وقالت من خلال المفاجأة :

ـ ولماذا كنت تريد ؟

وقال وهو يبعد عينيه عنها كأنه خجل منها :

ـ كنت أحس بضعف واعتقدت أن الكأس يعيننى عليه.. ولكنى أعتقد أنى أستطعت أن أتغلب على هذا الضعف بلا كأس.. المهم.. كيف استطعت أن تعدى لقاءنا فى هذه الساعة المتأخرة؟

وقالت وهى تضحك فى مرح :

ـ أهلى يقضون السهرة فى النادى الليلى.. ولن يتركوه قبل الواحدة أو الثانية صباحا.. وقد قلت لهم : إنى أفضل السهرة مع صديقتى سميحة.. وهم يعلمون أنى أفضل الدردشة على الجلوس لمشاهدة الاستعراضات الفنية.

وقال كأنه مطمئن إلى ما تعده للقائه بحيث لا يحتاج إلى الاقتناع بالأسباب :

ـ هل تعلمين أنى أصبحت أعيش كل ساعاتى فى حكاياتك؟ وقد نمت الليلة الماضية وأنا أتخيل حياتك، ولنقل حياة صديقتك ودود مع زوجها الجديد.

ونظرت إليه كأنها تلومه وتعاتبه لأنه لا يريد منها إلا حكايتها وأحنت رأسها كأنها غاضبة وأسقطت شعرها المدلى حتى غطى وجهها.. ومد يديه وأخذ يجمع بهما شعرها وهو يقول :

- إنى مهما أحببت شعرك فلا أستطيع أن استغنى به عن وجهك.. لا تخفى عنى عينيك.

ورفعت إليه وجهها وقالت من خلال ابتسامة مستسلمة :

- إنك دائما تخلط بينى وبين صديقتى ودود.

وتلجلج صوته فى حيرة قائلا :

- ربما لأنى أسمع حكايتها منك فأعيشها كأنها حكايتك.

وقالت وابتسامتها تحاول أن تغطى كذبتها :

- إنك معذور.. إنى عشت معها العمر كله حتى أصبحت أحس بحكايتها كأنها حكايتى.

ودارى كل منهما عينيه عن الآخر حتى لا يكشف كذبه ونفاقه للآخر.. ومالت نوف على مسند المقعد تخفى ظهرها العارى وسكتت برهة وهى تشد أنفاسها كأنها تسترد ذكرياتها من بعيد وقالت :

- كان زوجها الثانى هو أول رجل تحس معه بأنها امرأة كاملة. فقد قلت لك : إن زوجها الأول كان عاجزا عن تلبية مطالب الأنوثة.. ولا شك أنها تعلقت بزوجها خالد تعلقها باستكمال الطبيعة التى يجمع الله بها بين الرجل والمرأة.. كما أنها أحست منذ اليوم الأول بأنها تستطيع أن تفرض كل شخصيتها على خالد.. إنه يستسلم لكل مطالبها ويجيب عن كل اسئلتها.. ربما لأنها كانت بما ورثته عن زوجها أغنى منه.. وكان يحتاج إلى ثرائها أحيانا.. ثم أنه كان يترك لها الاعتزاز

بأنها من أصل أعرق من أصله.. أصل قبيلتها وقبيلته.. بعكس زوجها الأول الذى كان هو صاحب الثراء، وكان لا يهمه أصلها ولا قبيلتها إنما يعتبرها أمة اشتراها بأمواله.. وبعد أيام من الزواج طلبت من خالد أن يسافرا إلى لندن لقضاء شهر العسل.. وقد أحست بلندن كما لم تحس بها فى زيارتها الأولى.. لم يكن أبوها هناك حتى تعيش حياتها معه.. وكان خالد يصحبها كثيرا إلى شوارع وحوانيت لندن وليس كما تعودت أن تعيش الشوارع والحوانيت وحدها.. وحدها حتى وهى فى صحبة زوجة أبيها عفاف.. وكانت حتى وهى مع زوجها خالد فى شوارع لندن تتطلع حولها تبحث عن عبدالرحمن.. إنها إذا قالت إنها لم تعد تحبه فلا يمكن أن تقول إنها نسيته.. رغم أن كل ما بينهما قد انقطع ولا تعرف أين هو إلا أنها تبحث عنه فى شوارع لندن.. بل أنها اصطحبت زوجها إلى الفندق الذى كانت تلتقى فيه بعبدالرحمن.. ربما لمجرد أن تستعيد ذكرياتها التى لم تنضب ولا يزال خيالها يشدها إليها.. وقضت فى لندن ثلاثة أشهر ثم عادت تحمل أكداس مشتريات.. وهى حامل.

وابتسمت نوف فى حسرة ثم استطردت فى حسرة :

- كان طفلها الأول.. وقد أصبحوا ثلاثة.. كل عام طفل.. الإناء أثبت صلاحيته وقدرته على طبخ العيال.. ولكن كان المعروف عنها أنها لا تعطى نفسها كلها لأطفالها.. إنها تتركهم للمربيات والخدم وإشراف أمها وأخوتها.. وليس معنى ذلك أنها لا تحبهم.. بالعكس.. إنها تذوب فيهم وتعتبر كلا منهم قطعة منها وتنظر لكل منهم كأنها تنظر لتقاطيعها فى المرآة.. ولكن هذه هى طبيعتها.. لا شىء يمكن أن ينتشلها من التفكير

في وضعها وفيما وصلت إليه وما لا يزال ينقصها.. حتى حبها لأطفالها الذى يكفى كل النساء على تغطية فراغهن وحصر ما تنطلق إليه أفكارهن.. كانت هى.. المثقفة التى قرأت كثيرا.. لا تستطيع أن تحبس أفكارها حتى لا تنطلق بعيدا عن أولادها.. وكان زوجها خالد حريصا على الاعتراف لها بشخصيتها الكاملة ولكنه كان بلا تعمد يعيش طبيعته.. طبيعة الحياة الزوجية فى بلادنا.. إنه يخرج من البيت عند الظهر بعد أن يصحو ثم يغيب عنها حتى يعود إليها فى آخر الليل.. يعود إلى الفراش.. إلى الاناء الذى يطبخ فيه العيال.. ولو أنها كانت قد أدمنت متعة لقاء الفراش حتى وهى تعتبر نفسها مجرد إناء لسكب البذور.. لماذا لا تتغير فى رجالنا هذه الطبيعة؟ طبيعة المجتمع كله.. ويتفتح المجتمع ليجمع بين الرجال والنساء فى كل المناسبات.. مناسبات العمل.. ومناسبات التسلية وقطع الوقت.. حتى لا يبتعد الزوج عن زوجته كل هذا الوقت.. وحتى لا يكون لكل منهم حياة بعيدة عن الآخر.. ودنيا لا يعرفها ولا يتمتع بها الآخر.. لعل بعض رجالنا يضيقون بهذا المجتمع.. ولكنه مجتمع معبأ بالتقاليد التى فرضت عليهم وتعودوا عليها.. لذلك يتعمد هذا البعض بعد أن يفيض به الزهق أن يتزوج من أجنبيات.. يتزوجون أمريكية أو إنجليزية أو من البلاد العربية.. من مصر أو من لبنان أو من سوريا أو من المغرب.. وكل ما يدفعهم إلى هذا الزواج هو أنهم يعيشون به فى مجتمع آخر.. مجتمع مفتوح لا يفرض على الزوج أن يغيب عن زوجته إذا أراد أن يجلس بين أصدقائهم الرجال.. والأغلب أن يحتفظ الرجل الذى يتزوج بأجنبية بزوجته فى بلدها ولا يأتى بها إلى بلده.. ليعيش معها فى مجتمعها لا فى

مجتمعه.. لأنه إذا جاء بها إلى بلده اضطر أن يعيش بها على ما تفرضه التقاليد فيبعدها عن أصدقائه مثلا.. رغم أنه يبيح لهؤلاء الأصدقاء أن يختلطوا بزوجته فى المجتمع الآخر.. المجتمع الخارجى.. مادام ليس فى بلده.. وهى واثقة أن زوجها خالد لا يمكن أن يدور بخلده الزواج بأجنبية بل إنه من شدة حرصه على مرضاتها هجر زوجته الأولى ولم يطلقها.. قال لها : إن واجبه يفرض عليه إلا يقدم على أن يطلقها إلا إذا طلبت هى الطلاق.. وهى لم تطلب الطلاق رغم أنه لم يعد يبيت فى بيتها أبدا.. ولكنه فى الوقت نفسه لا يحس بأى شىء يجب أن يتغير.. إنه مستسلم لتقاليد مجتمع بلده وهو سعيد راض لا يحس بشىء ينقصه ويحس أنه مستكمل لكل شخصيته.. شخصية الزوج كما يتصورها.. هى وحدها التى كانت تعانى من هذه التقاليد التى تترك للرجل كل هذه الحقوق.. وكانت معاناتها تدفعها أحيانا إلى تصور أنها تزوجت من رجل أجنبى عربى.. إن كثيرات من صديقاتها تزوجن من عرب أجانب.. أنها تعرف ثلاثة تزوجن من مصريين.. وواحدة تزوجت من لبنانى مسلم.. وأخرى تزوجت من سورى.. وإن كن كلهن كان زواجهن من أجانب هو الزواج الثانى.. إن البنت عندهم لا تستطيع أن تفرض إرادتها وهى بنت.. ولكنها تبدأ دائما بالاستسلام لأهلها وهم لا يزوجونها إلا من أهل البلد ثم بعد ذلك إذا ضاقت واستطاعت أن تحصل على الطلاق استطاعت أن تكون حرة فى الوصول إلى ما تريد.. إن المطلقات أقوى وأكثر حرية من البنات.. حتى أن المطلقة تستطيع أن تتزوج من أجنبى رغم معارضة وتهديد الأهل.. وقد سألت مرة احدى صديقاتها اللاتى تزوجن من أجانب عرب :

ـ ما الفرق؟

وقالت صديقتها فى بساطة وحبور :

ـ إنه يحس بالبيت ويحبه.

كأنها كانت تريد أن تقول : إن الزواج ليس مجرد فراش الزوجية.. إنه البيت كله.. والزوجة ليست مجرد إناء لانجاب الأطفال إنها البيت كله الذى يرمز إلى الحياة كلها.. لذلك فالزوج لا يستطيع أن يهمل زوجته أو يستقل بحياة خاصة أو يعيش فى عالم بعيد عن البيت.. إن كل عالمه مرتبط بالبيت.. بعكس الفراش.. إنه يحصر الزوجية فى لحظات تمر سريعا ثم يطول عمر هذا الفراش حتى يمله الزوج فيبحث عن فراش آخر.. عن زوجة أخرى.

وكانت ودود تهرب من معاناتها بأن تصحب زوجها إلى رحلات فى الخارج.. كانا احيانا يعيشان فى الخارج ستة شهور من السنة حتى بعيدا عن الاطفال.. وكان يستجيب لإرادتها ويطاوعها دائما.. ولكنه حتى فى الخارج كانت تغلبه طبيعته، فيتركها ويخرج إلى أصدقائه الذين يجدهم فى الخارج.. فى لندن أو فى باريس أو فرانكفورت أو فى سان فرنسيسكو.. ولم يعد يرحب كثيرا بالخروج معها إلى الشوارع كما كان يرحب أيام شهر العسل.. ربما ارتفعت قوة شخصيته أمام شخصيتها مع السنين.. ومعاناتها تشتد.. وتحس بالسخط على كل حياتها.. إنها رغم كل ما وهبها الله تحس بنفسها غلبانة.. فارغة.. لعلنا كما يقول الناس عنا، مليئات اليد فارغات العقل. فإن عقلها لم يهدها أبدا إلى التخلص مما تعانيه رغم كل ما كانت تبذله للبحث عن طريق التخلص منه.

ورفعت نوف رأسها إليه وقالت وهى تنظر إليه بكل عينيها كأنها تتحداه :

ـ لا تظن أن معاناتها دفعتها إلى التفكير فى خيانة زوجها أبدا.. ولا طرأ هذا الخاطر على عقلها.. إنها مؤمنة كما قلت لك.. وشرع الله لا يبيح الخيانة ولا يبيح اللقاء بين الرجل والمرأة إلا فى الحلال.. حتى عندما كان يخطر لها الزواج من أجنبى يوفر لها حياة البيت الكامل كان خاطرها يهرب منها سريعا.. لماذا تترك خالد؟ إنه لم يمسها بما يمكن أن تلومه عليه.. إنه على طبيعته.. طبيعة كل الرجال.. ثم أنها لا تدرى سببا لكل ما تعانيه إلا اتهام نفسها بالجنون. إن مجتمعها كله يتهمها بالجرأة أى بالجنون.. وأبدا لم تقدم رغم كل مظاهر جنونها على ارتكاب خيانة زوجها.

ورفعت نوف كفها تغطى به صدرها المكشوف كأنها تحميه من عينيه وحتى يتأكد من أنها ليست من هؤلاء النساء اللاتى يمكن أن يقدمن على الحرام.. رغم أنه كان قد نسى صدرها وظهرها وشعرها المسدول وكل ما يغريه منها متفرغا للحالة التى وضعته فيها.. حالة الاستماع.. مهما طال الاستماع.. وهو يعلم أن مجرد احتماله القدرة على الاستماع هو الوسيلة الوحيدة لشفاء المريض.

●●●

وقامت نوف من جلستها قائلة :

ـ لقد أعددت لك القهوة.. أم أن الوقت متأخر ولا تستطيع أن تشرب القهوة حتى لا تحرمك من النوم.

وقال ضاحكا :

ـ إنى لا انتظر النوم مادمت استمع إليك..

وصبت له فنجان القهوة وهى تتعمد أن تقف بجانبها حتى لا تدير له ظهرها العارى، ثم ألقت بنفسها على المقعد وهى

ترفع يدها وأصابعها تحاول أن تجمع أطراف فتحة ثوبها حتى تغطى صدرها، ربما دفعتها ذكرياتها إلى أن تلوم نفسها لأنها اختارت أن تستقبله بهذا الثوب الذى يكشف عن لحمها.. إنه عجوز ولكنه يبدو مشدود الجلد كأنه لا يزال فى شبابه.. ثم لا شك أن زوجها الأول كان أكبر منها ورغم ذلك كان يريدها ويحاول معها.. ربما هو الآخر يريدها ويتمنى أن يبدأ ويحاول معها.. ولكن لا.. لا يمكن.. إنه نوع آخر من الرجال.. لا يمكن أن يكتب كل ما قرأته له وهو رجل عادى.. إنها تثق فيه وتطمئن إليه.. وعلت شفتيها ابتسامة هادئة بينما هو ينظر إليها نظرات صامتة وهو يرشف فنجان القهوة.. إنه لم يعد متعلقا بصدرها العارى ولا بذراعيها المكشوفتين.. لعله استطاع أن يطرد شهوته من احساسه بعد أن استمع إليها وأحس أنه فى حالة عمل.. عمله فى الكشف عن أسرار الدنيا والناس.. وقالت وقد عادت عيناها ساهمتين :

ـ لقد خفف من معاناتها أن فوجئت بمشكلة أخرى.. كان قد مضى عليها أكثر من أربع سنوات لم تر خلالها أباها.. وكانت قد أقلت من الخطابات التى تكتبها إليه.. ربما خطابا واحدا أو اثنين فى العام دون أن تتلقى ردا كما هى العادة.. بل إنها لم تعد تعطى من نفسها كثيرا فى تتبع أخباره التى يحملها إليها من يعود من الخارج من أهل البلد.. ولم تكن تجد فيما تسمعه من أخباره شيئا جديدا.. إنها عرفته إلى حد لم تعد تدهش لأى خبر تسمعه عنه.. إلى أن فوجئت به يرسل إليها ابن عمها ويطلب منها أن تأتى للقائه بأسرع ما تستطيع.. وكان أيامها يقيم هنا.. فى القاهرة.. ودهشت.. ولكن دهشتها كانت تنبض بالسعادة.. إنها الوحيدة من بين بناته وأبنائه وكل

أهلها التى يحتاج إليها ويرسل فى دعوتها.. وقد قررت أن تسافر إليه فى اليوم التالى من تلقى الدعوة.. ولكن زوجها خالد فوجىء.. أنه لا يستطيع السفر.. وكانت تستطيع أن تجبره على أن يسافر معها مهما كانت أسبابه.. ولكنها اختارت أن تسافر إلى أبيها وحدها.. وزوجها وافق مرتاحا.. وتركته وتركت أولادها.. إنها مطمئنة عليهم فى رعاية الخدم ورعاية أمها العجوز.. وسافرت.

والتقت بأبيها فى الفندق الذى يقيم فيه.. فندق شيراتون.. لعله الفندق الذى يوفر للسياح العرب كل ما تدفعهم إليه طبيعتهم دون حساب ودون تقيد.. إننا نرتاح فعلا فى هذا الفندق أكثر من أى فندق آخر.. إن الفنادق الأخرى تزعجنا بقيودها وبما هو مسموح به وما هو ممنوع.. وقد استقبلها أبوها بابتسامته الواسعة التى تحبها منه.. إن كل ما يستطيع أن يعبر به عن أبوته وحبه لها هى هذه الابتسامة.. ومضت دقائق يسألها فيها عن أخبار الأهل وأخبار البلد.. وكان يسأل بلا حماس كأنه يعرف كل شىء.. ثم فجأة تجهم وجهه واحتدت عيناه وقال وهو يلوى شفتيه كأنه قرفان :

ـ لقد طردت عفاف.

وكان يقصد أنه طلقها.. وأخذ يروى أسباب طلاقه لها وليس بينها سبب يدعو إلى الطلاق.. إنه لم يضبطها فى فضيحة.. ولم تتجرأ عليه بكلمة، ولم تمس احساسه، ولكن الأسباب كلها تتجمع فى اختلاف الشخصيات واصرار عفاف على الاحتفاظ بشخصيتها فى مواجهة شخصيته. إن عفاف ترفض أن تكون كزوجات بلدنا.. مجرد إناء يوضع فوق الفراش لانجاب الأبناء.. وقد كانت ودود معجبة بعفاف منذ

التقت بها فى لندن.. معجبة باحتفاظها بشخصيتها.. وهى نفسها عاشت تتمنى أن تكون مثلها محتفظة بشخصيتها.. ولذلك تأثرت كأنها فجعت بخبر طلاقها من أبيها.. ولكنها لم تستطع أن تقول شيئا سوى بضع كلمات الحسرة.. إنها رغم كل جنونها لا تستطيع أن تلوم أباها على قرار اتخذه.. وقال أبوها عدوان وهو يتنهد فى سخط :

- المهم الآن هم أولادى.. الولد والبنت.

وانطلق عدوان يشكو مما يعانيه من الطفلين.. الولد والبنت.. إنهما غريبان عنه.. لا يعرفان شيئا عن أصل أبيهم ولا فصله.. لا يعرفان شيئا عن قبيلتنا، ولا عن بلدنا.. ولا عن حياتنا.. والأهم من ذلك أنهما لا يتكلمان لهجتنا.. لا ينطقان بكلمة واحدة مما ننطق به.. إنهما لا يعرفان إلا أمهما.. وبلد أمهما.. ويتحدثان بلهجة أمهما.. اللهجة المصرية.. حتى أنه عندما يلتقى بهما فى هذه اللحظات النادرة يضطر أن يحدثهما باللهجة المصرية حتى يفهماه.. إن أشد ما يثير الأب ويغيظه أن ولده وابنته يتكلمان هذه اللهجة وكأنهما ليسا منه.

له حق.. إن كل أب حريص على أن يكون ابناؤه صورة منه.. استمرارا له.. وكل ما يشغل الأب الذى يتزوج أجنبيه ألا يكون أولاده أجانب.. أن يحتفظ بهم لنفسه ولبلده.. هذه هى طبيعة الأب ولكن هل هذه هى طبيعة الأم التى تتزوج من أجنبى.. لا.. إن الطبيعة تختلف.. إن الأب هو صاحب الملك لا الأم.. وتذكر ودود أنها التقت بصديقتها التى تزوجت من مصرى ومعها ابنها وقالت لها ضاحكة وكأنها تغيظها :

- يبدو على ابنك أنه سيكون مصريا خالصا.

وقالت صديقتها وكأنها فخورة :

- طبعا.

وقطعا هى ليست فخورة بمصر ولكنها فخورة بزوجها المصرى الذى يسعدها.. وطبيعة الزوجة السعيدة هى أن تعطى زوجها.. تعطيه كل شىء حتى أولادها..

وقال عدوان فى اصرار عنيف :

- قررت أن أرسل الولد والبنت إلى بلدنا ليعيشا هناك.. حتى يكونا من أولادى.

وقالت له ودود فى استسلام :

- لك حق يا أبى.

قال وهو ينظر نظرة آمرة.. إنه أب يأمر ولا يرجو :

- ستصحبينهما.. وتكونين مسئولة عنهما هناك.. إنك خير البنات لذلك أعتمد عليك.

وقالت ودود :

- تحت أمرك يا أبى.

وتنهد عدوان كأنه استراح باعلان قراره وتلفتت هى بالصدفة فى أنحاء الحجرة.. إن عدد زجاجات الأدوية المقوية المرصوصة فوق سطح الدولاب قد زاد.. نفس الأدوية التى كان يعتمد عليها زوجها الأول لاسترداد فحولته.. وعادت تلتفت إلى أبيها وهى تتذكر زوجها الأول.. أن أباها أيضا بدأ يبدو عليه العجز.. وجهه ممصوص وجلده كالح اللون ولو أنه مشدود.. وأحست كأنها تعزى نفسها فى أبيها.

ثم قالت له فى صوت خفيض :

- هل استطيع أن التقى بعفاف؟

وصاح فى عنف :

- لماذا.. ماذا تريدين منها؟

وقالت ودود فى رقة :

- لا شىء.. ولكنى أرى أن نحتفظ بالود مادمنا سنأخذ أولادها.

وأحنى رأسه وقال كأنه قرفان :

- كما تريدين.

ورغم أنها جاءت إلى أبيها وحدها فإنه لم يحسب حساب أن تقيم معه فى الجناح الذى خصصه لنفسه فى الفندق.. إنما كان قد حجز لها غرفة ملاصقة.. وقامت إلى غرفتها مستسلمة لوحدتها ولكنها لم تستطع أن تتحمل الوحدة طويلا فاتصلت بالتليفون بعفاف مطلقة أبيها.. وانطلقت عفاف ترحب بها فرحا.. واتفقا على أن تذهب إليها فى بيتها بعد ساعة.. إنه البيت الذى اشتراه لها أبوها.. وتركه لها بعد الطلاق بل أنه خصص لها بعد الطلاق راتبا شهريا يستمر بعد الطلاق إلى أن تتزوج من آخر ولو استمر طوال حياتها.. إنه رغم شذوذه وغرابة كل حياته رجل كريم شفوق.

ولم تجد عفاف حزينة أو متأثرة بالطلاق.. إنها مرحة منطلقة يطل ذكاؤها من عينيها كما كانت تعرفها.. وقالت لها ضاحكة :

- إنى منذ تزوجت وأنا انتظر الطلاق.. إنه من هذا النوع من الزواج الذى يسمى زواج متعة وإن كنا لا نعترف به صراحة لأننا لا نبيح زواج المتعة.. وقد طالت المتعة عشر سنوات.. هذا يكفيه ويكفينى.

كانت تتحدث كأنها تروى قصة صفقة ناجحة فى حياتها.. كسبت الكثير ولم تخسر شيئا.. وقالت لها ودود دون أن تخلو

لهجتها من الشماتة كأنها تريد أن تعايرها بقوة أبيها الذى طلقها :

- ولكنه يريد أن يأخذ الولد والبنت.

وقالت فى بساطة من خلال ابتسامتها المرحة :

- هذا حقه.. وأنا أعدهما له.. فهو أبوهما الكفيل بهما والذى يضمن لهما مستقبلاً ربما أفضل مما يمكن أن أضمنه لهما أنا.. ولكنهما لايزالان صغيرين.. الولد فى التاسعة والبنت فى الثامنة.. ولا يزالان فى حاجة إلى أمهما.

وقالت لها ودود فى تحد :

- قد يصر على أن يأخذهما الآن.

وقالت عفاف ضاحكة :

- إنى أعرف أنه عنيد.. ولكنى قادرة دائما على التغلب على عناده.

وهزت ودود رأسها صامتة كأنها تترك كل شىء للقدر.

وقد عادت إلى الفندق ولم تحاول أن تروى لأبيها ما كان من لقائها بمطلقته ولا هو سألها.. وأبوها لم يتغير.. يتصل بها كل صباح بالتليفون فى حجرتها دون أن يدعوها إليه ثم يتركها ليخرج من الفندق أو ليدعو أصدقاءه إلى جناحه فى الفندق ويلعبون القمار.. وهى لم تجد فى القاهرة من تلجأ إليه ليخفف من وحدتها إلا عفاف.. إنها تلتقى بها كل يوم وتقضى معها السهرة.. ولا يتحدثان إلا قليلا عن الطلاق وعن الأولاد.. وعفاف تستطيع أن تجد دائما حديثا ممتعا.. إلى أن كان اليوم الثالث من وصولها إلى القاهرة واتصل بها والدها فى الصباح يدعوها إلى الجناح الذى يقيم فيه وقال دون أن يستقبلها بابتسامته التى تحبها :

ـ اتصلى بعفاف فى التليفون وقولى لها : إنى سأرسل السيارة لتعود إلىّ بالولد والبنت.. أنى أريد أن أراهما.. فهمت.. أريد أن أراهما.

وفهمت أنه جاء الموعد الذى حدد فيه خطفهما.. خطف الولد والبنت.. وأحست بتقلص فى قلبها كأنها مقدمة على جريمة.. ولم تناقش أباها، ولكنها رفعت سماعة التليفون بعد أن ضغطت على أعصابها حتى تسيطر على حالتها.. وطلبت عفاف وقالت وهى تدعى الضحك والحبور :

ـ إنه يريد أن يراهما وسيرسل السيارة لتحملهما إليه.

وقالت عفاف فورا وهى تضحك :

ـ يا بختهما سيريان عدوان فى حين أنى محرومة من رؤيته.

وبعد أن وضعت ودود السماعة قال لها أبوها :

ـ أعدى حقائبك.. ستعودون اليوم إلى البلد.

وعادت إلى غرفتها وهى منهارة تجرجر قدميها مستسلمة لاشتراكها فى الجريمة.. وجاء الولد والبنت.. إن كليهما صورة من أمهما.. ليس فيهما شبه من أبيهما إلا قليلا من اللون الأسمر.. إنه يقال : إن الزوجة إذا كانت تحب زوجها أكثر جاء الأولاد أكثر شبها للزوج.. وإذا كان الزوج هو الذى يحبها أكثر جاء الأولاد أكثر شبها لها.. لعل عدوان كان يحب عفاف أكثر.. لم تكن بالنسبة له مجرد صفقة كما كان هو بالنسبة إليها.

وخلال ساعات كانت السيارة تحمل ودود والطفلين إلى الطائرة.. وهما بجانبها يضحكان ويلهوان دون أن يدريا شيئا.. وهى تنظر إليهما فى اشفاق يفتت كل أحاسيسها.. إنها مجرمة.. اشتركت فى جريمة خطف طفلين من أمهما.

●●●

واعتدلت نوف فى جلستها وهى تتنهد كأنها تريح خفقات أنفاسها، ثم نظرت فى الساعة المرصعة التى تلفها حول معصمها، وقفزت مذعورة قائلة :

ـ ياه الساعة الثانية عشرة والنصف.. سميحة لن تأتى.. وأنا يجب أن أصعد إلى غرفتى حتى أكون فى انتظار الأهل.

وقام واقفا مقتربا منها وهو يحس الاجهاد من طول ما سمع .

ـ لم أحس بأن كل هذه الساعات قد مرت.. رغم أنى أتمنى أن أسمع أكثر.

قالت فى صوت رتيب وهى تنظر إليه كأنها تقبله بعينيها :

ـ لقد وصلت بك إلى آخر مشاكلى ولم يبق منها إلا القليل لأرويه لك..

ورفع أصابعه يتسلل بها بين طيات شعرها المفرود وقال:

ـ ومتى سأراك.

وقالت منطلقة :

ـ غدا.. ثق أنى سأراك غدا مهما كان وأستطيع أن أحدد لك الموعد من الآن.. الساعة الحادية عشرة صباحا فى مكتبك.

ووجد كفيه يتجرآن ويمسكان بذراعيها العاريتين ويضغطان عليهما كأنه يتذوقها قبل أن يأكلها.. وقال هامسا :

ـ هل ستأتين إلىّ بمثل هذا الثوب.. إنه جميل.

وانسدل جفناها فى خفر وقالت :

ـ إنى لم أعد أحس بك كغريب، ولذلك تجرأت بوضع هذا الثوب الذى لا أظهر به أمام غريب إلا وأنا أغطيه بالعباءة.

وقال وقد اتسعت ابتسامته :

- إن جمال الثوب كما قلت لك يرتبط بالمناسبة التى يظهر فيها.. وقد أثار معى مناسبة كنت أقاومها.

وظلت ساكتة كأنها مستسلمة لما يمكن أن يحدث.. وأحس بنفسه كأنه يفيق مما هو فيه، ورفع كفيه عن ذراعيها، وخطا سريعا نحو الباب.. كأنه يجرى منها ومن نفسه، وهو يقول :

- تصبحى على خير.

وأغلق الباب وراءه دون أن يسمع صوتها، ودون أن يلمح ابتسامتها الحائرة.

٨

وجاءته فى موعدها بالضبط ، وجاءته وحدها، واستبدت به الدهشة حتى صاح بمجرد أن دخلت :

- أين صديقتك.. أين سميحة ؟

وقالت ضاحكة :

- تأخرت علىّ وخفت أن اتأخر عليك.. وكنت ملهوفة كأنى فى انتظار أن اتناول الدواء أوآخذ حقنة فى العضل ليتم لى الشفاء.. إنك لا تدرى كم تطورت منذ بدأت أحكى لك.. أحس كأنى فعلا زفرت كل ما كنت أعيش فيه من ضباب وغيوم.

ونظر إليها كأنه يفحصها بعينى الطبيب.. إنها فعلا كأنها شفيت.. إن نظراتها وأنفاسها وابتسامتها وكل ما فيها يبدو أهدأ.. جمال هادىء.. كأن صاحبته قوية لا تعانى شيئا.. ودهش وهو يلمح ثوبها الذى جاءته به.. إن مجرد اختياره يختلف عن كل ما كانت تختاره من فساتين خصوصا الفستان الذى اختارته ليلة أمس.. إنه مجرد جيب ازرق اللون ومن فوقه جاكت من نفس اللون.. ثوب جاد وشعرها معقوص فوق رأسها عقصه هادئة ليس فيها شىء من تفانين مصففى الشعر.. وإن كانت قطع الماس لا تزال تبرق بين أصابعها وفوق صدرها وفى شعرها.. وقال مبتسما :

- إنى أراك كأنك تغيرت فعلا.. ربما لمجرد أننى تعودت عليك، وكان التغيير هو فى احساس كل منا بالآخر لا فيما داخل كل منا.

وقالت فى حبور :

- لا.. إنى أحس بالتغيير فى داخلى كأنى أصبحت انسانة أخرى على الأقل أصبحت أنام بلا أرق.

وجلست قبل أن يدعوها للجلوس ولم تلق بظهرها على مسند المقعد كما عودته، إنما أحنت ظهرها قليلا وهى مستندة بذراعيها فوق ركبتيها، وقالت :

- أين وقفنا بالحكاية؟

إنها اليوم متعجلة.. لا تنتظر حتى يقدم لها المقدمات والمشهيات التى تفتح نفسها لتحكى حكايتها.. واستطردت من تلقاء نفسها قائلة :

- قلت لك : إن ودود حملت أخاها الأصغر وأختها من أبيها وسافرت بهما إلى بلدها وهى تحس باحساس المجرمة التى اشتركت فى خطفهما من أمهما.. وقد ظل الطفلان لاهيين فى الطائرة إلى قبل أن تهبط بقليل وجاءتها الابنة تسألها :

- أين ماما؟

وقالت ودود وهى تحاول أن تعطيها كل ما فيها من حنان :

- أنا ماما يا حبيبتى.

وقالت الفتاة فى دهشة حادة :

- لا.. لست ماما.. أريد ماما.

وقالت ودود وهى تقبلها :

- أنا ماما إلى أن تأتى ماما.. وستأتى قريبا.

ومنذ وصلت الطائرة وأخذت الولد والبنت إلى البيت وهما

ينظران حولهما فى دهشة.. ثم أخذا يصرخان.. ماما.. ماما.. ويبكيان.. وأفراد العائلة بدأوا يترددون ليشاهداهما وينظرون إليهما كنبت غريب ظهر فى حديقة العائلة، ومع الأيام يزدادان حدة ونفورا من كل من يقف أمامهما.. حتى وهما مع ودود.. ولا يكفان عن البكاء.. وعن التنهد.. ماما.. ماما.. وأصبح من الصعب دفعهما إلى تناول الطعام أو إلى أى مما تتطلبه وتفرضه حياة الأطفال، وكانت ودود تخرج بهما أحيانا فى نزهة مع بقية أولادها ولكن الأولاد لا يلبثون أن يضرب أحدهما الآخر والبنات يدخلن فى خناقة وتعود بهم ودود سريعا والبكاء يزف الجميع إلى داخل البيت، وكانت ودود تعتقد أن مرور الأيام سيغير من الولد والبنت ويتعودان على حياتهما الجديدة.. ولكنهما لا يتغيران، ولا يكفان عن المطالبة بأمهما.. ولا عن البكاء.. وأنت تعرف كما قلت لك إن ودود ليس فيها طاقة الأم بالنسبة لأبنائها فما بالك بعذابها مع أخوتها من أبيها.. أنها فكرت أن تتخلص من بقاء الولد والبنت فى بيتها وترسل بهما إلى بيت أمها أو أحد أخوتها ولكنها كانت تخشى أباها.. وفى مرة ضاقت حتى اتصلت بأم الطفلين.. اتصلت بعفاف بالتليفون وقالت لها فورا :

- ليس ذنبى ولا ذنبك ولكنه ذنبنا نحن الاثنين بالنسبة للولد والبنت.

وصرخت عفاف :

- ساستردهما.. أنهما لى.. أنا أمهما.

وقالت لها ودود وهى تتوسل إليها :

- أرجوك.. سأستدعيهما لمحادثتك وحاولى أن تقنعيهما بالاحتمال.. احتمال غيبتك إلى أن يعودا إليك.

وقد تمالكت عفاف أعصابها وعادت ذكية كما هو معروف عنها وحادثت الولد ـ تحاول ـ والبنت أن تقنعهما أنهما فى بيت أبيهما ينتظرانها إلى حين اللقاء.. حادثتهما طويلا، وعندما التقطت ودود سماعة التليفون عند انتهاء المحادثة سمعت دموعها تكاد تنسكب فى أذنيها.. وهى تقول :

ـ لن أتركهما.. لا يمكن.. سيعودان إلىّ.

وقد عرفت ودود أن عفاف رفعت قضية حضانة أمام المحاكم تطالب عدوان بأن يرد لها أبناءها.. ولكن ماذا تجدى أحكام المحاكم المصرية والأبناء فى بلد آخر؟

وقد هدأ الولد والبنت قليلا بعد أن حادثا أمهما.. ولكنهما يريدان محادثتها مرة ثانية.. يريدان أن يحادثاها كل يوم، ويصرخان، ويبكيان، وودود تخاف أن يعلم أبوها عدوان بهذه المحادثة.. لقد سبق أن أصدر أمرا بألا يتصلا بأمهما أو تتصل بهما.

وكانت ودود تكتب لأبيها.. وبدأت لا تراعى مرضاته وهى تكتب له. إنها تخاف على الولد والبنت.. تخاف أن يموتا بين يديها.. إنهما فى حالة هستيرية دائمة.. ولا أحد يستطيع أن يراعيهما ويكفل لهما متطلبات حياتهما.. حتى عندما أدخلتهما مدرسة البلد لم يطيقا المدرسة ولا المدرسة طاقتهما.. أصبحت تطالب أباها بأن يجد حلا آخر.

وبعد ستة شهور جاء أبوها بنفسه إلى البلدة.. إنه رغم الغياب الطويل لم يستقبل من أهل البلد بضجة الترحيب التى كان يستقبل بها أيام زمان.. لقد أصبح فى تقدير أهل البلد لغزا لا يستطيعون فك خيوطه.. ومع كثرة ما يسمعونه عنه لا يفهمون شيئا مما يسمعون.. وقد بقى عدوان فى البلد ثلاثة

أيام دون أن يتكلم كلمة واحدة عن الولد والبنت.. أكتفى بأن رآهما من بعيد.. ويقضى يومه فى زيارات أو فى استقبال الاهل ثم يدخل آخر الليل إلى فراش زوجته.. زوجته الأولى التى عاشت العمر كله دون أن تنطق بكلمة.. يدخل إليها كأنه لم يغب عنها كل هذه السنوات.. لا تتكلم ولا تسأله حتى أين كان؟ ولكنى لا أعتقد أنه حاول أن يستعملها كإناء لطبخ الأطفال.. لم يعد قادراً على الطبخ.

وفى اليوم الثالث أخذ طفليه.. الولد والبنت وسافر بهما إلى لندن دون كلمة يقولها لابنته ودود حتى ولو كلمة شكر على ما عانته طاعة لأوامره.. كان يبدو غاضباً منها ساخطاً عليها.. ربما وصلته الأنباء بأنها سمحت لعفاف أن تحادث الولد والبنت فى التليفون.. وعفاف بالنسبة له أصبحت رجسا من عمل الشيطان.

وقد حدث بعد عام كامل أن سافرت ودود إلى لندن مع زوجها وعرفت هناك أن أباها قد أدخل الولد والبنت فى مدرسة انجليزية داخلية.. واتفق مع إدارة المدرسة على ألا تسمح لأحد أبدا من أهلهما بأن يراهما مهما كان بالنسبة لهما حتى لو كانت أمهما إلا واتصل بالمدرسة ليسمحوا لودود بلقاء الولد والبنت.. ولا تتصور باذنه وبعد الاتصال به.. وكانت المدرسة كفيلة بهما طوال العام . كان كأنه حكم عليهما بالسجن إلى الأبد.. وقد التقت ودود بأبيها فى لندن ورجته أن يسمح لها بزيارة أخيها وأختها منه فى مدرستهما وقلت متوسلة :

ـ حتى لا تحرمهما من رؤية أهلهما.. مجرد الرؤية.

ووافقها أبوها من خلال ابتسامته الواسعة التى تحبها..

شتاء وصيفا.. لا إجازة يمكن أن يتنسمان بها الحياة خارج الدهشة ولا الحيرة التى صدمتها عندما التقت بهما.. إنهما فى عام واحد أصبحا شيئا آخر.. إنهما غريبان.. لا يمكن أن يكونا أبناء عفاف.. ولا من هذا البلد ولا ذلك.. واللهجة التى يحادثانها بها ليست لهجة بلدها ولا لهجة مصرية بل قد لا تكون لهجة عربية.. إنها لهجة تتعثر وتتخبط بين كلمات انجليزية وكلمات عربية بلا لون.. أصبحا كانهما انجليزيان أو كانهما عربيان.. كانهما.. ولكن لا شيء فيهما يحدد من هما.. ولا إلى أى أصل ينتميان.. وقد يظلان هكذا إلى أن يكبرا.. كل منهما بلا شخصية.. أو كل منهما يبحث عن شخصية.. ماداما سيقضيان العمر فى هذه المدرسة.. وقد استقبلا ودود وكانهما لا يعرفانها وإن كانا يذكرانها.. وحديثهما بارد لا تفهم منه شيئا وهما أيضا لا يفهمان منها شيئا.. وكأنه كان لقاء رسميا بحكم الأوامر التى اتفق عليهما الأب وإدارة المدرسة.

وقد تركتهما وهى تكاد تبكى عليهما.. لقد ضاعا.. ضاعا من أبيهما ومن أمهما ومن بلدهما.. ووجدت نفسها ساخطة على الاتجاه الذى ظهر بين الطبقة الثرية من أهل بلدها.. طبقة البترول.. بإرسال الأولاد منذ صغرهم ليعيشوا ويكبروا ويتلقوا العلم فى المدارس الإنجليزية والأمريكية.. إنها لن ترسل أولادها أبدا إلى الخارج إلا بعد أن يستكملوا شخصياتهم.. الشخصية المستمدة من الأب والأم ومن بلدهم.. والشخصية لا يستطيع أن يفرضها العلم وحده مهما أعطى العلم داخل المدارس والجامعات.

ولم تتحدث ودود مع أبيها عما أحسته ناحية أولاده.. البنت والولد.. إنه لن يفهمها ولن يتأثر.. وقد مر الآن عام آخر وهما

لا يزالان فى نفس المدرسة دون أن يتردد عليهما أحد من أهلهما إلا أبوهما فى فترات متباعدة.. ولكن ودود ستحاول زيارتهما عندما تكون فى لندن هذا الشهر.. بل إنها اتصلت بأمهما عفاف واتفقت معها على أن يلتقيا فى لندن وتحاول أن توفر لها لقاء ابنها وابنتها.. إن ودود تشفق على عفاف وتحاول أن تودها فى كل مناسبة.. ولكن عفاف ليست متأكدة أنها تستطيع أن تسافر إلى لندن.. إنها متزوجة.. ولا تدهش.. لقد تزوجت رجلا آخر من بلدنا.

وسكتت نوف وشدت ظهرها ومدت يدها تلتقط الشراب المثلج المقدم لها ثم رفعت وجهها إليه وهى تنظر إليه كانها تشكره :

ـ هذه هى الحكاية.. حكاية فشل وحرمان منذ ولدت ودود حتى الآن.. أنها عاشت محرومة من أبيها ولو كانت حرمت منه لأنه مات لكان اخف عليها من أن تحرم منه وهو على قيد الحياة.. وفشلت فى حبها الوحيد.. فشلت لأنها تعيش فى مجتمع لا يعترف بالحب ويعتبر كل ما سمعه عن الحب بما فيه أشعار قيس وليلى مجرد خرافات.. مجتمع يقوم على علم الحسابات بين القبائل.. كم تساوى هذه القبيلة وكم تساوى تلك؟ وهل يتزوج هذا الابن من هذه الابنة أم أن الحساب لا ينتهى بالزواج حتى لو كان هناك ما يسمى بالحب، وفشلت فى زواجها الأول، وزواجها الثانى رغم كل ما فيه من هدوء واستقرار إلا أنه يبدو كالأكل والشرب.. تأكل وتشرب وتتزوج.. ليس فيه الاحساس بلقاء واندماج الشخصية بين الزوج والزوجة.. حتى أخويها من أبيها.. الولد والبنت.. إنهما فشل للمجتمع الذى تعيش فيه ويقيدها بقيوده.

وهى قد استراحت عندما حكت كل حكايتها.. أحست كلما تقول : إنها زفرت كل الضباب والسحب التى كانت تخيم داخل صدرها.. ولكن من يدرى.. ربما بعد فترة تعاودها المعاناة.. ويعود يفتتها الاحساس بأن المرأة فى بلدها ليست سوى إناء لإنجاب الاطفال.. إنها ليست سوى إناء.. إناء من آنية المطبخ.. أو قد تعود إلى ثورتها على ما يقوله الناس عنهن.. إن المرأة عندهم يد مملوءة وعقل فارغ.. إنها تفضل وتتمنى لو كانت تقنع الناس بأن عقلها مملوء حتى لو كانت يدها فارغة.. فكيف تطمئن إلى نفسها إلى ما تختاره لنفسها؟ إنها أحيانا تحس بأن الدواء الوحيد لها هو أن تتناول مخدرات تطفىء كل ما يخيل إليها أنها تتصف به من تطلعات بعيدة تصورها لها ثقافتها وربما ما قرأته من قصص.. إنها تتمنى لو كانت جاهلة كبقية اخوتها ونساء بلدها وتكتفى بيدها المملوءة وتستسلم للواقع دون أن تكشف أن فيه شيئا ينقصها أو شىء يحقرها.. يجعلها حقيرة أمام نفسها.

وسكتت نوف كأنها تسترد أنفاسها ثم قالت من خلال ابتسامة واسعة :

- هل تعود ودود إلى معاناتها.. ما رأيك ؟

وقال فى هدوء :

- رأيى فى ماذا ؟

قالت وهى دهشة كأن أملها خاب بهدوئه :

- رأيك فيما سمعته منى.

ونظر إليها وهو يبتسم فى حنان كأنه يشفق عليها وقال :

- إنى لم أسمع قصة أقول رأيى فيما قد تحتاجين إليه منى مع اقتناعك بأنى أفهم فى القصص.. ولم أسمع منك كلاما عن

حالة شاذة أصيبت بها فتاة تحتاج إلى علاج واعتبرتنى طبيبا يستطيع أن يصف الدواء.. إن كل ما سمعته منك هو كأنه وصف تفصيلى للمجتمع الذى تعيشين فيه.. مجتمع عربى.. والمجتمعات تعيش منذ بدء الخليقة على التطور من حالة إلى حالة.. وقد يكون تطورا نحو الصعود وقد يكون تطورا نحو الهبوط.. الانهيار.. ومجتمعات البلاد العربية كلها تختلف مع بعضها البعض فى نسبة تطورها والظروف التى تحيط بهذا التطور.. وكل مجتمع فيها له حياته وله تقاليده وله أحكامه على الخطأ والصواب وعما يصح وما لا يصح.. إنك مثلا لا تستطيعين وأنت تعيشين فى بلدك أن تخرجى إلى الشارع إلا وأنت تحت العباءة ولكنك لا تكادين تصلين إلى القاهرة حتى تخلعى العباءة وترمى بها إلى صندوق الزبالة وتسيرين بثوبك فى الشارع، فإذا وصلت إلى لندن تماديت إلى أكثر مما عشته فى القاهرة فارتديت فى لندن المينى جيب ووصلت إلى ارتداء المايوه البكينى.. لماذا؟ ونفس الشىء يحدث عندما تنتقلين بالعكس أى من لندن إلى بلدكم.. لماذا؟ لأنك تنتقلين من مجتمع إلى مجتمع.. إن ملكة انجلترا نفسها اضطرت عندما زارت احدى بلادكم أن ترتدى ثوبا طويلا يسقط حتى قدميها ويرتفع حتى عنقها ويغطى كل ذراعيها كما تعمدت أن تغطى شعرها.. لماذا؟ لأنها راعت أن ما يبيحه مجتمعها لا يبيحه مجتمعكم.. وأرادت أن تنافقكم.

وقالت نوف مقاطعة :

- ولكن ودود كانت تعانى منذ كانت فى بلدها وقبل أن تخرج إلى أى مجتمع آخر يمكن أن يؤثر عليها.

وقال محتفظا بابتسامته الهادئة :

ـ إن التطور لا يشمل المظاهر فقط ولكنه يشمل الحياة كلها بكل دقائقها وتفاصيلها.. التطور الفكرى.. وهو تطور لا يقوم على العلم ولكنه يقوم على تطور احتياجات الحياة.. إن فكرى تطور عن فكر أبى، وفكر أبى تطور عن فكر جدى.. لا لأن أيا منهم كان أذكى من الآخر ولكن لأن احتياجات الحياة لكل منهم تغيرت، والتطور يشمل حتى تعامل الناس بعضهم مع بعض، ويشمل علاقة الرجل بالمرأة.. والأب بابنته.. والزوج بزوجته.. حتى من الناحية الجنسية فقد تطور مفهوم لقاء المرأة بالرجل ومعانيه وتقاليده وأحكامه: إن فى بعض الدول الأجنبية التى وصلت إلى منتهى التقدم أصبح لقاء المرأة والرجل فيها يقوم على مجرد الرضا.. رضا الطرفين.. رضا المرأة والرجل.. ولا يعتبر جريمة أو عيباً إلا إذا غاب عنه الرضا وكان اعتداء.. والتطور يخضع للاحتياجات حتى أنه فى موسكو أصبحت ممارسة اللقاء فى الحدائق العامة بسبب أزمة المساكن.. ليس لهذا الرجل ولهذه المرأة بيت يمكن أن يمارسا فيه اللقاء فيمارسانه فى الحدائق كما كان الإنسان القديم يمارسه تحت أشجار الغابة.. بل أن التطور شمل أيضا اللهجات التى يتكلم بها الناس.. فإن الشعوب تقاربت حتى اضطر كل منها أن يعدل من لهجته حتى يفهمه الآخر، وبين البلاد العربية كانت اللهجة المصرية هى السائدة لأن بقية الشعوب العربية كانت فى حاجة إلى التعامل مع مصر.. خصوصا إلى الاستماع إلى أغانيها.. أغانى أم كلثوم.. ثم اتسعت حاجة الشعوب العربية بعضها إلى بعض فتقاربت كل اللهجات.. بل أن اللغة العربية نفسها تطورت.. والأسلوب العربى الذى اكتب به الآن غير الأسلوب الذى كان يكتب به طه حسين وغير الأسلوب الذى

كان يكتب به المنفلوطى وغير أسلوب الجاحظ والمتنبى.. وهو تطور فرضته محاولة تسهيل التفاهم بين الكاتب والقارىء.. حتى اللغات المختلفة بين بنى البشر.. لماذا أصبحت اللغة الانجليزية منتشرة بيننا؟ لأننا أصبحنا فى حاجة إلى الذين يتكلمون الانجليزية، ونحن فى حاجة إليهم أكثر من حاجتنا إلى الذين يتكلمون اللغة الروسية لذلك لم تنتشر بيننا الروسية.. أنت مثلا.. لماذا تعلمت هذه الكلمات الانجليزية.. لأنك هويت لندن.. وكان يمكن أن تتعلمى الفرنسية لو كنت قد هويت باريس.

وعادت نوف تقاطعه وهى تغتصب ابتسامة حتى لا تحرجه بمقاطعتها :

ـ ما دخل حكاية صديقتى ودود بكل ذلك؟

وقال فى هدوء كأنه يعتذر لها :

ـ ربما قلت مقدمة طويلة لأصل بها إلى حكاية صديقتك ودود.. إن ودود لا تعيش حكاية ولكنها حالةتعيشها كل امرأة إذا تفتح عقلها إلى الحاجة إلى التطور.. وهى حالة طبيعية وإن كانت تعتبر كأنها ثورة أو تحد للأهل وتقاليد الأهل.. إن مجتمعكم يجتاز مرحلة تطور عنيفة.. وكما قلت لى : إنه تطور من مجتمع اللؤلؤ إلى مجتمع البترول.. والفروق بين المجتمعين كبيرة.. لقد كان أبعد ما وصل إليه بكم مجتمع اللؤلؤ هو مجتمع الهند.. وقد تفتحتم على مجتمع الهند وتطورتم به إلى آفاق جديدة.. أصبحت كل مطالب حياتكم بما فيها المطالب الفكرية مستوردة من الهند.. ثم ظهر مجتمع البترول ففتح أبوابكم على عالم آخر.. عالم أوربا وأمريكا.. وفوجئتم بكل ما يغريكم بالتطور إلى مظاهر جديدة ونظم

جديدة وأفكار جديدة وحياة جديدة.. ولكنكم قاومتم هذا التطور.. وعندما عجزتم عن مقاومته بدأتم تتسترون عليه وتخفونه حتى عن أنفسكم.. أصبحتم تسمحون بالتطور داخل البيوت وتحرمونه فى الشوارع خارج البيوت.. وأصبحتم ترفضون التطور فى بلادكم وتستسلمون له وتزاولونه عندما تتركون بلادكم وتسافرون إلى الخارج.. إلى المجتمعات التى استكملت تطورها.. وأعتقد أن مقاومتكم للتطور تقوم على أنكم لستم فى حاجة إلى هذا التطور لتحقيق احتياجاتكم.. إن البترول وجد دون تطور.. وكل هذه الأموال تدفقت بلا تطور.. فلماذا تتطورون؟ لماذا تقلبون حياتكم إلى مثل حياة المجتمعات الأخرى.. بل إنكم تؤمنون بأن الفضل فيما مَنَّ الله عليكم به من رخاء راجع إلى مجتمعكم القديم.. إن مصر سبقتكم فى التطور لأن مجتمعها القديم لم يكن يحقق لها كل ما تحتاج إليه من رخاء، وتطورت بقيام ثورة على القديم.. ولكنكم لستم فى حاجة إلى ثورة على القديم ولا فى حاجة إلى التطور.. وهذا إيمان خاطىء بالتطور.. فالتطور لا يقوم على تحقيق الرخاء مقدما، ولكنه يغطى حاجة الحياة كلها.. حتى الحياة الشخصية الخاصة بكل فرد.

ومرة أخرى قاطعته قائلة :

ـ المهم ماذا أقول لصديقتى؟

قال مستطردا وهو فى هدوئه :

ـ قولى لها : إن أباها ليس شاذا كما تتصور، ورغم كل أخطائه فإنه كان جريئا صريحا فأقدم على الانتقال من مجتمع اللؤلؤ إلى مجتمع البترول.. ولم يكن وحده، ولذلك ضاع كل مجتمع اللؤلؤ من بلادكم.. وقولى لها : إنها كانت أعجز من

التطور بحبها الأول لعبدالرحمن.. إن الحب كعاطفة لا يزال كما هو منذ وجدت المرأة والرجل ولكن الذى تطور هو أسلوب التعبير عن هذا الحب وأسلوب ممارسة الحب.. لقد تطور الحب حتى أصبح يتيح للرجل ما يتيحه للمرأة.. أصبح يقوم على المصارحة الكاملة.. وهى وحبيبها لم يتصارحا منذ البداية.. ولو كانا قد تصارحا لاستمر بهما الحب حتى اليوم بلا زواج أو لانطفأ الحب بينهما منذ البداية دون أن يترك لهما مشاكل.. وإقدامها على زواجها الأول كان طبيعيا لا يرفضه التطور.. فإن التطور لا يحول دون الاقدام على الانتحار.. وقد كانت تنتحر.. بل أن نسبة الانتحار قد زادت بين بنى البشر لأن التطور مع كل ما أعطاه للإنسان أتعبه إلى حد الاقبال على الانتحار... والانتحار لا يكون دائما اختيار الموت.. ثم أن مشكلتها مع زوجها الثانى تنحصر فى احساس كل منهما بالحاجة إلى التطور.. تطور المجتمع كله، تطور الحياة الزوجية والحياة العائلية.. وهى نفس المشكلة بين أبيها وزوجته عفاف.. كل منهما يرى التطور ويفسره تفسيرا يختلف عن الآخر.. أى أن صديقتك لا تعانى إلا مشكلة واحدة يعانيها كل أهل بلدها.. مشكلة التطور.

وسهمت نوف برهة كأنها بدأت تقتنع بما يقول ثم قالت وهى تائهة مع أفكارها :

ـ وبم أنصحها ؟

وقال مبتسما كأنه يخفف عنها ثقل ما ملأ به رأسها :

ـ قول لها: ألا تعتبر نفسها صاحبة مشكلة ولكنها تعيش حالة عامة تشمل كل بلدها.. حالة التطور.. وإما أن تواجه هذه الحالة وهى متمالكة لأعصابها وتعيها بعقلها.. وتكون حريصة

على ألا تؤذى نفسها ولا أحدا ممن حولها.. وأما أن تستسلم للثورة فى سبيل التطور حتى لو قتلت نفسها واستشهدت.. إنها فى حالة عامة تعيشها وسيعيشها أولادها من بعدها.

وظلت نوف ساهمة ثم قالت كأنها تحادث نفسها :

ـ لك حق.. هذا صحيح.

ثم نظرت فجأة إلى ساعتها المرصعة وقفزت واقفة وهى تقول:

ـ تأخرت.. يجب أن أذهب.

وقال وهو يقوم مع قفزتها :

ـ ألا تستطيعين البقاء قليلا؟ أصبحت لا أستطيع الاستغناء عنك .

قالت فى خفر :

ـ أنى أتمنى أن أبقى إلى مدى ما تتحملنى.. ولكنى لا أستطيع.

وابتسم يائسا وقال :

ـ إنك ترتدين ثوبا لم أتعود أن أراه عليك.. ولكنه ثوب يتفق مع مناسبة لقائنا.

قالت وهى تخفى عنه عينيها :

ـ إنه ثوب الطائرة.

وقال فى جزع :

ـ هل تسافرين ؟!

قالت كأنها تهم بالبكاء :

ـ الليلة.. لم أستطع أن أقنع الأهل بأن نبقى أطول.. وثق أنى حاولت كثيرا أن أقنعهم بالبقاء ولكنهم مضطرون.. أنهم ينتظروننا فى لندن.. ولكنى سأكتب لك.. كل يوم سأكتب لك كما كنت آراك هنا كل يوم.. وسأعود إلى القاهرة.. سأعود إليك..

ورفعت إليه عينيها متعلقة بعينيه كأنها تهم بتقبيله.. ولكنه لم يكن ينتظر منها قبلة.. فاكتفت بأن مدت له يدها وصافحها قائلاً: دون أن يضغط على اليد :

ـ مع السلامة وأنا سعيد بثقتك فى ولو أنها ثقة لم تكتمل.

وقالت ويدها فى أحضان يده :

ـ بالعكس.. إنها كل الثقة.

وقال ضاحكا :

ـ إنها لم تصل إلى حد أن أعرف؟ من أنت؟ لا أعرف اسمك ولا اسم عائلتك ولا حتى أعرف ـ من أين أنت؟

وقالت وقد أحنت رأسها فى خجل ويدها مستسلمة ليده :

ـ لقد كنت أقدر أنك يمكن أن تكتب قصة وخشيت أن تعلن فيها الأسماء.

قال مبتسما وهو يحس بيده كأنها تنام مع يدها :

ـ إنى لا أكتب قصص أشخاص.. إن الأشخاص قد يوحون إلىّ بقصة ولكنها لا تكون أبدا قصتهم.. وإلا كنت أكتب عن الحواس والأخبار البعيدة عن خيالى وفكرى ولست كاتب قصص.

قالت كأنها تهمس :

ـ إن ما سمعته منى هى قصتى.

قال مبتسما :

ـ أعرف منذ الكلمة الأولى.

وعادت تهمس :

ـ واسمى ليس نوف ولا ودود.. وسأقول لك كل شىء حتى تثق بأنى أثق بك إلى ما لا نهاية.

وقالت له كل شىء.

وهو سعيد بأن استكمل كل ثقتها.

ورفعت إليه عينيها كأنها تهم مرة ثانية أن تقبله أو أنها تنتظر منه أن يقبلها، ولكنه كان مكتفيا بأحضان يدها وبسعادة إحساسه بها..

وصحبها حتى باب البيت ويدها فى يده، ووقف بها أمام المصعد ولم يترك يدها إلا بعد أن دخلت فيه لتنزل وهى تكرر:

ـ سأكتب لك.. سأكتب.

وأدار ظهره ودخل إلى مكتبه وهو يبتسم ساخرا بينه وبين نفسه.. إنها لن تكتب، وقد لا يراها مدى العمر.. ليس من نصيبه أن يرى إلا المريضات، والمريضة تنسى الطبيب بمجرد أن تشفى.

وألقى بنفسه على المقعد الذى يخيل إليه أنه ليس له مقعدا آخر غيره.. مقعد مكتبه.. وحاول أن يتمتع باعتزازه بنفسه.. إلى هذا الحد يثق فيه قراؤه.. ولكنه وجد أحاسيسه تتلوى.. كأنه يرثى نفسه.. كأنه يعزى نفسه فى نفسه.. من قال إنه أستاذ.. من قال إنه دكتور.. إنه يستمع ولا يجد من يستمع إليه.. ويستقبل المرضى وهو مريض لا يجد من يستقبله.

ووجد نفسه يبتسم ابتسامة مسكينة.

لعله هو الآخر يجتاز مرحلة تطور.

(تمت)